

التحولات القيمية والثقافية في المجتمع المصري... إلى أين؟

تقديم

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله زايد

تحرير ومراجعة

الدكتورة شيرين جابر

التحولات القيمية والثقافية
في المجتمع المصري...
إلى أين؟

التحولات القيمية والثقافية في المجتمع المصري... إلى أين؟

تقديم

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله زايد

تحرير ومراجعة

الدكتورة شيرين جابر



مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

التحولات القيمة والثقافية في المجتمع المصري... إلى أين؟/ تقديم أحمد عبد الله زايد؛ تحرير ومراجعة شيرين جابر -- الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، مركز الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٢٣.

صفحة؛ سم

يشتمل على إرجاعات ببلوجرافية.

تدمك 4-664-452-977-978

١. التغير الاجتماعي -- مصر. ٢. التكنولوجيا -- جوانب اجتماعية. ٣. المجتمع المصري. ٤. الشخصية والثقافة. أ. زايد، أحمد، ١٩٤٨- ب. جابر، شيرين. ج. مكتبة الإسكندرية. مركز الدراسات الاستراتيجية.

2023611028397

ديوي - 303.40962

ISBN 978-977-452-664-4

رقم الإيداع: 2023 /9371

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢٣.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذا الكتاب، كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا الكتاب، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص. ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

المراجعة البليوجرافية: نيفين نور الدين

رحاب عز الدين

المراجعة اللغوية: فاطمة نبيه

معالجة النص: صفاء الديب

مراجعة التنسيق: مروة عادل

التصميم الجرافيكي: آمال عزت

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن آراء كاتبها فقط، ولا تُعبر بالضرورة عن رأي مكتبة الإسكندرية.

التحولات القيمية والثقافية في المجتمع المصري...

إلى أين؟

(رؤى تحليلية واستشرافية عن التحولات القيمية والثقافية في المجتمع المصري)

(البيانات الواردة جميعها مُحدّثة بتاريخ نوفمبر ٢٠٢٢)

صادرة عن مركز الدراسات الاستراتيجية

مكتبة الإسكندرية



الفهرس

٩	الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله زايد	تقديم
١١	الدكتور عمرو غنيم	ما بعد المادية في المجتمع المصري «رؤية سوسولوجية للمسح العالمي للقيم»
٢٥	الدكتور عمار علي حسن	قيمة البقاء عند المصريين
٣٥	الدكتورة إسراء أحمد إسماعيل	قيم المواطنة والانتماء ومستقبل التنمية السياسية في مصر
٤٧	ريهام صلاح خفاجي	القراءة والسلوك المؤيد للبيئة لدى الشباب: نحو خطة متكاملة لبناء الوعي
٥٧	الدكتور وليد رشاد زكي	الشباب المصري والثقافات الرقمية في مجتمع المنصة
٧١	الدكتورة جيهان عبد السلام عباس	الثقافة الاقتصادية في المجتمع المصري بين الثوابت والتغيير
٨٥	سوزان عابد	«الهوية» و«الموروث» قراءات في «التغيرات المجتمعية» وأصدائها في الدراما المصرية
١٠٩	الدكتورة شيرين جابر	رؤية لإعادة بناء الشخصية المصرية في ظل التحديات المعاصرة



التحولات القيمية والثقافية في المجتمع المصري... إلى أين؟

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله زايد

مدير مكتبة الإسكندرية

يمر عالمنا المعاصر بتغيرات كبيرة وسريعة، تتدفق عبر الزمان والمكان بمعدلات غير مسبوقة. وقد وقف المتخصصون في العلوم الاجتماعية أمام هذه التغيرات وقفات متأنية لأنهم يدركون مدى تأثيرها في بنية المجتمعات وثقافتها؛ بل أطلقوا على العصر أسماء تؤشر إلى حجم القلق الذي تضمه هذه التغيرات؛ فهو «عالم عدم اليقين»، و«العالم المنفلت»، و«مجتمع المخاطر»، و«إمبراطورية الفوضى».

ومن أهم الإسهامات التي قدمتها العلوم الاجتماعية في رصد التغيرات في العالم المعاصر لفت الأنظار إلى أهمية تأثير هذه التغيرات في بناء الهوية، وفي الأطر الثقافية المستقرة، وفي الأنساق القيمية والأخلاقية. وعليه كان إطلاق البحث العالمي للقيم عام ١٩٨١، وهو مسح عالمي يجري في دورات كل خمس سنوات، تم منها حتى الآن سبع دورات في ١٢٠ دولة. وقد صنع هذا المشروع العالمي الكبير، وما دار حوله من مناقشات وأطروحات نظرية، اهتمامًا كبيرًا بدراسة القيم فانعكس هذا الاهتمام في مصر، إذ طبق البحث العالمي للقيم أدواته فيها في أكثر من دورة، فأجريت بحوث عديدة حول القيم، وطفق الباحثون المصريون يناقشون قضايا التغير في الهوية وبناء الشخصية ومنظومات القيم.

ويأتي الإسهام الذي بين أيدينا في هذا الإطار، وفي نطاق اهتمام مكتبة الإسكندرية برصد أهم التغيرات التي تطرأ على المجتمع المصري. ورغم صغر حجم هذا الكتاب، فهو يطرح موضوعات مهمة تلقي الضوء على جوانب من تغير القيم وبناء الشخصية المصرية... فأتمنى أن يكون مفيداً للباحثين في هذا المجال.

ما بعد المادية في المجتمع المصري

«رؤية سوسيولوجية للمسح العالمي للقيم»

الدكتور عمرو غنيم

مدرس / خبير علم الاجتماع السياسي،

المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية

يمكن فهم احتمالية ظهور منظور ثقافي جديد على أفضل وجه من حيث السياق الاجتماعي والاقتصادي العالمي المتغير، ويمكن تفسير ذلك من حيث التسلسل الهرمي الشهير للاحتياجات لأبراهام ماسلو^(١). فقد وجد أنه عندما يرتفع دخل الأفراد ويتم تلبية احتياجاتهم الأساسية، فإنهم يشعرون أن بقاءهم آمن وتتحول أولوياتهم من الاحتياجات الأساسية إلى احتياجات المستوى الأعلى، وأنهم يتقدمون من خلال سلسلة من مستويات الحاجة حتى يصبحوا في نهاية المطاف أكثر اهتمامًا لتنميتهم الشخصية، وهو ما أطلق عليه ماسلو تحقيق الذات.

وتشير الأبحاث الاجتماعية في حقبة السبعينيات من القرن الماضي إلى أن المجتمع العالمي أصبح أكثر ثراءً وتعقيدًا ولم تعد خيارات الحياة أمرًا مفروغًا منه، وأصبح الأفراد وخاصة الشباب منهم أكثر غموضًا بشأن مستقبلهم، فكانوا يتحولون من الأساس الاجتماعي والثقافي للرفاهية إلى أساس التكيف الشخصي مع العالم.

وبعد عقدين من الزمان أو نحو ذلك، أبلغ العالم السياسي بجامعة ميشيغان «رونالد إنجلهارت» عن تحول ثقافي ذي صلة بالمجتمع الصناعي عام ١٩٩٠، ونشر دراسة لمدة ٢٠ عامًا

For additional information, see Abraham H. Maslow, *Motivation and Personality*, Harper Psychological Series (١) (New York: Harper and Row, 1954).

شملت ٢٤ دولة حول تطور القيم في أواخر القرن العشرين^(٢). وأبلغ عن تحول قيمي أطلق عليه قيم «ما بعد المادية» نتيجة للأمن الاقتصادي والمادي السائد منذ الحرب العالمية الثانية. وتضمنت القيم الناشئة حديثًا الحق في التعبير والتأثير الفردي على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وتأكيد تحقيق الذات والقضايا المتعلقة بنوعية وجودة الحياة.

وتأسيسًا على الطرح السابق، يصبح البحث في دور قيم ما بعد المادية بالمجتمع المصري ذا أهمية بالغة في أية مقارنة لعلاج وحل أزمة القيم بالمجتمع المصري، ومن هنا تأتي الدراسة الراهنة في محاولة للكشف عن واقع قيم ما بعد المادية بشكل عام، وتأثير المجتمع المصري بها بشكل خاص في الآونة الأخيرة طبقًا للظروف الاجتماعية والسياسية.

أولاً: إنجهارت والمسح العالمي للقيم

يعد المسح العالمي للقيم (World Values Survey) من أوسع الشبكات العلمية والمشروعات البحثية المتخصصة في مجال تحولات القيم وتأثيرها في الحياة الاجتماعية والسياسية على المستوى العالمي. ومنذ عام ١٩٨١ أنجز المشروع استطلاعاته فيما يقارب مائة دولة حول العالم على يد «رونالد إنجلهارت». فيعد أوسع عمل مسحي في مجال القيم والمعتقدات الإنسانية تم إنجازه على المستوى العالمي. ويسعى هذا المسح إلى مساعدة العلماء وصناع القرار على فهم التغيرات التي تلاحق معتقدات وقيم وعادات الأفراد. ومنذ انطلاق هذا المسح تم إنجاز سبع موجات من المسح، بدأت أولها خلال الفترة (١٩٨١-١٩٨٤)، ثم الثانية خلال الفترة (١٩٩٠-١٩٩٤)، ثم الموجة الثالثة خلال الفترة (١٩٩٥-١٩٩٨)، ثم الموجة الرابعة خلال الفترة (١٩٩٩-٢٠٠٤)، ثم الموجة الخامسة خلال الفترة (٢٠٠٥-٢٠٠٩)، ثم الموجة السادسة خلال الفترة (٢٠١٠-٢٠١٤)، وقد كانت آخرتها موجة (٢٠١٧-٢٠٢٢). وقد شاركت مصر في الموجات الأربع الأخيرة؛ الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، وتم جمع البيانات

For additional information, see Ronald Inglehart, *Culture Shift in Advanced Industrial Society* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990). (٢)

من السكان في أعوام ٢٠١٨، ٢٠١٢، ٢٠٠٨، ٢٠٠٠ على عينات بلغ قوامها (٣٠٠٠)، (٣٠٥١)، (١٥٣٢)، (١٢٠٠) على التوالي^(٣).

وأكدت بيانات المسح الأول والثاني التحول إلى ما بعد المادية واقترح «إنجلهارت» إطارًا جديدًا أطلق عليه «ما بعد الحداثة». وأشار إلى أن التحديث ساعد المجتمع على الانتقال من الفقر إلى الأمن الاقتصادي، وأن هذا النجاح أدى إلى تحول في ما يريده الناس من الحياة في ما بعد الحداثة^(٤).

ووفقًا لما تقدم، تؤدي قيم ما بعد الحداثة إلى تراجع الثقة بالسلطة الدينية والسياسية حتى العلمية، كما أنها تجلب أيضًا رغبة جماهيرية زائدة للمشاركة والتعبير عن الذات، وحينئذٍ يتحول التركيز الروحي بين الجماهير من الأمن إلى الأهمية؛ من البحث عن الطمأنينة في مواجهة انعدام الأمن الوجودي إلى البحث عن أهمية الحياة. ووجد «إنجلهارت» هذه القيم بين الأجيال الأكثر تعليمًا والأكثر وضوحًا والتي نشأت مع الثراء والترف وحرية الاختيار في أواخر القرن العشرين. ولوحظ أن التعبير عن القيم الجديدة بقوة أكبر في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، مع اتساق عابر للقوميات وصفه «إنجلهارت» بأنه رائع، على الرغم من أنه أقل تقدمًا، فقد لوحظ تحول مماثل في بيانات مسح القيم العالمية في الفترة (١٩٩٠-١٩٩٣) لأوروبا الشرقية وشرق آسيا وإفريقيا، مما يشير إلى أن التحول في القيم لا يقتصر بأي حال من الأحوال على البلدان الغنية في شمال وغرب العالم^(٥).

ومما سبق نجد أن «إنجلهارت» قدم توصيفًا لقيم ما بعد المادية في ضوء نظرية ماسلو عن الدوافع الإنسانية. فيرى أنه تبعًا لنظرية أبراهام ماسلو عن تدرج إشباع الدوافع الإنسانية، فإن الفرد يمر تبعًا لتدرج إشباع الدوافع من المرحلة المادية إلى تكوين قيم ما بعد المادية.

(٣) World Values Survey Wave 6 (2010–2014), World Values Survey (WVS) (database), <https://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWV6.jsp>.

(٤) Ronald Inglehart, “Changing Values among Western Publics from 1970 to 2006”, *West European Politics* 31, no. 1-2 (January–March 2008): 130–146.

(٥) Ronald Inglehart, *Modernization and Post Modernization: Cultural, Economic, and Political Change in 43 Societies*, Princeton Paperbacks (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997): 327–328.

فتبعًا لتلك النظرية فإن الفرد يشبع الحاجات الفسيولوجية أولاً، ثم ينتقل إلى إشباع الدافع الذي يليه وهو الحاجة إلى الأمن، ثم الذي يليه... إلخ. أما رؤية «إنجلترا» لتدرج إشباع الدوافع هي أن الفرد ينتقل من إشباع دوافع تخضع للقيم المادية إلى إشباع دوافع تدرج تحت قيم ما بعد المادية مثل تحقيق الذات، الذي يتضمن قدرة الفرد على إبداء رأيه بحرية. ويربط «إنجلترا» ظهور قيم ما بعد المادية في المجتمع بانتشار الرخاء، وارتفاع جودة الحياة، ووجود ديمقراطية سياسية بالمجتمع. ومن السلوكيات المصاحبة لقيم ما بعد المادية كل ما يتعلق بتسيخ الأخلاق، وحرية التعبير عن الرأي والذات، والعدالة السياسية، والرضا عن الذات، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والسلام الدولي، والمحافظة على البيئة، وحقوق الحيوان.

ثانيًا: القيم المادية وما بعد المادية بين الأجيال

يكشف الإسهام التحليلي الرائد لـ «رونالد إنجلترا» في سبعينيات القرن الماضي حول مسألة تغير أولويات القيمة لدى المجتمعات، أن تحول القيم في البلدان الصناعية لم يكن عشوائيًا، ولكن تحقق من خلال التنشئة الاجتماعية للمراحل العمرية المتعاقبة في سياق الأمن الاقتصادي والمادي، مما مكنهم من إعادة توجيه أهدافهم من ضمان الاحتياجات الأساسية الاقتصادية والمادية إلى الأولويات غير المادية الأخرى. فبسبب النمو الاقتصادي الهائل وأنظمة الرعاية الاجتماعية السخية بعد الحرب العالمية الثانية (العقد الهادئ)، أصبح من الممكن للمواطنين في المجتمعات الصناعية المتقدمة أن يعدوا الأمن الوجودي أمرًا مسلمًا به، وفي المقابل أدى هذا تدريجيًا إلى تطور واضح نحو ما يسمى بقيم ما بعد المادية التي تؤكد التعبير عن الذات والاستقلالية الفردية على حساب الأهداف المتعلقة بالبقاء الاقتصادي والأمن المادي، لا سيما لدى الأجيال الأصغر سنًا. ولكن أيضًا فإن فرضية تغير القيمة ضمن هذا الطرح لا تعني أن الشباب ما بعد الماديين بالضرورة أكثر من كبار السن؛ فالتوجه نحو قيم ما بعد المادية يحدث فقط إذا كانت أحوال النشأة في ظروف معيشية أكثر أمانًا من كبار السن. فالتحول نحو قيم ما بعد المادية في المجتمعات الصناعية بعد الحرب

العالمية الثانية على سبيل المثال وفق «إنجلترا»، كان مدفوعًا بالظروف الوجودية المتغيرة أولاً وقبل كل شيء، ويحلل هذا بآثار وتداعيات أحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية على مجموعات الولادة الكبرى سنًا والتي عانت أحداثًا مهددة للحياة (الأمن الوجودي)، إذ إن البقاء على قيد الحياة لم يكن مؤكدًا بالنسبة إلى الغالبية العظمى من السكان. وفي المقابل صنع النمو الاقتصادي الهائل وصعود دولة الرفاهية خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، ظروفًا جديدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة، فعاشت مجموعات الولادة في فترة ما بعد الحرب (جيل الشباب) سنواتها التكوينية تحت مستويات ازدهار هائلة غير مسبوقة، وعززت دولة الرفاهية بعد الحرب الشعور بأن البقاء على قيد الحياة آمن، إذ إنه منذ عام ١٩٤٥ شهد العالم أطول فترة في التاريخ بدون حرب بين القوى الكبرى^(٦).

وبطبيعة الحال فإن الأثر البالغ الذي أدت إليه جميع هذه التحولات هو بروز هوة جيلية مثلتها الاختلافات الكبيرة في الخبرات التكوينية لمجموعات المواليد بعد الحرب والفئات العمرية الكبرى سنًا، مما أدى إلى تناقضات كبيرة في أولوياتهم القيمة، إذ بدأت هذه الاختلافات تتضح عندما انخرطت مجموعة ولادات ما بعد الحرب في مسيرة قيم ما بعد المادية ذات الطبيعة والأهمية السياسية. وفي جميع الأحوال فإن نظرية تغير القيم بين الأجيال لا يمكن إثباتها أو فهمها بشكل جيد إلا بالرجوع إلى الفرضيتين الواقعتين اللتين بنيت عليهما، وهما فرضية الندرة وفرضية التنشئة الاجتماعية.

١- فرضية الندرة

بالرجوع إلى ما تم تحليله من قبل «إنجلترا»، فإن التحول في أولويات القيم يُعزى بالدرجة الأولى إلى وضع الأفراد الاجتماعي والاقتصادي. ومن الأولويات التي تفرض نفسها هنا كأولوية عليا، القوت المادي أو المواد التي تدخل في معيشة الفرد بصورة أساسية ثم الأمن الجسدي، وكلاهما يعد من المتطلبات الأولى للبقاء على قيد الحياة. وعندما تحصل

(٦) سهير صفوت، «التغير في القيم والأمن الوجودي: تحليل نظرية تغير القيم بين الأجيال لرونالد إنجلترا»، المجلة المصرية للعلوم الاجتماعية والسلوكية ٤، العدد ٤ (أكتوبر ٢٠٢١): ٣٣-٣٥.

الندرة في الاحتياجات والقيم المادية الأكثر إلحاحًا سوف يعطي الأفراد هذه الأهداف المادية الأفضلية القصى من أجل الحفاظ على البقاء. ومن الطبيعي بعد ذلك وفي ظل الظروف المزدهرة والاستقرار، سيصبح الأفراد أكثر تأكيدًا للأهداف وقيم ما بعد المادية مثل الانتماء والتقدير والرضا الفكري والجمالي^(٧).

٢- فرضية التنشئة الاجتماعية

وفي إطار هذا السياق يجادل «إنجلهارت» أنه لا يمكن تحليل فرضية الندرة بمعزل عن فرضية التنشئة الاجتماعية، فالأخيرة متشعبة بضرورة وجود الأمن الاقتصادي والجسدي في التحول إلى القيم ما بعد المادية، غير أن العلاقة بين الظروف المادية والأولويات القيمية ليست قابلة للتكيف أو التعديل الفوري، فثمة فارق زمني كبير، فتغير القيمة بين الأجيال بطبيعته يتحرك بديناميكية تتسم بالبطء، لكن تأثيره على المدى الطويل يمكن أن يكون عميقًا. ومن هذا الجانب فقيم الفرد الأساسية تعكس إلى حد كبير الظروف السائدة خلال سنوات حياته الأولى أو سن الرشد، وهذه القيم تتغير بشكل رئيسي من خلال الاستبدال السكاني لما بين الأجيال^(٨).

ومن ثم فإن الاستجابة الحاصلة، ضمن فرضية الندرة، بين الفارق الجوهرى القائم بين الحاجات المادية لأجل البقاء الجسدي والأمان، والحاجات غير المادية أيضًا، مثل التعبير الذاتى والرضا الجمالى - مماثلة تمامًا لمبدأ «تناقص المنفعة الحدية» فى الاقتصاد. فالفترات

Michal Novy, Michael L. Smith and Tomas Katrnak, "Inglehart's Scarcity Hypothesis Revisited: Is (٧) Postmaterialism a Macro- or Micro-level Phenomenon around the World?" *International Sociology* 32, no. 6 (2017): 683-684.

Ronald Inglehart, "Changing Values in the Islamic World and the West", in *Values Political Action, and Change* (٨) *in the Middle East and the Arab Spring*, edited by Mansoor Moaddel and Michele J. Gelfand (New York: Oxford University Press, 2017): 4-5.

الطويلة من الازدهار العالي تميل إلى تشجيع انتشار قيم ما بعد المادية كما أن التدهور الاقتصادي المستمر له تأثير معاكس^(٩).

وفي نهاية هذه الأطروحة النظرية، يمكننا المراهنة على أن المقاربة القيمية وعلاقتها الوثيقة بتغير القيم لدى الأجيال، تبدو جديدة بالاختبار ضمن الحالة المصرية؛ وذلك كونها تكشف عن جدلية طريفة وهي من جهة أن هناك تأثيرًا واضحًا لدورة الحياة من خلال الميل الواضح لجيل الشباب نحو قيم التعبير عن الذات كحرية التعبير والمشاركة السياسية كقيم ما بعد المادية، ومن جهة ثانية يبدو أن هذا الجيل لا يزال أمام تحدي تحقيق الأمن المادي الوجودي (كقيم مادية). وهذا ما يدفعنا إلى معرفة ما إذا كان التوجه القيمي لدى جيل الشباب في مصر قد حدث وفقًا للاتجاهات المتوقعة ضمن نظرية «إنجلهارت».

ثالثًا: قيم ما بعد المادية بالمجتمع المصري

عند التطرق إلى المجتمع المصري نجد أن منظومة قيمه قد تطورت منذ منتصف القرن الماضي، فسادت في الخمسينيات قيم العدالة الاجتماعية والمساواة، وأدى التوسع في التعليم إلى هدم الحواجز الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية. لكن الحال تغير في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي إذ اتجهت سياسة الدولة العامة إلى الانفتاح، الذي ساعد على بروز القيم الفردية، فضلًا عن بروز بعض القنوات الأخرى التي أدت إلى إحداث تغيرات على مستوى الطبقات الاجتماعية، وهو ما أفضى إلى ظهور مؤشرات للتمييز الاجتماعي، مما أدى إلى تراجع قيم الاستقرار بالمجتمع المصري.

ولهذا فقد دفعت التحولات الاقتصادية إلى تبني الدولة سياسات التكيف الهيكلي منذ بداية تسعينيات القرن العشرين، الأمر الذي انعكس مباشرة على المجتمع المصري، إذ انخفضت مستويات الدخل وأوضاع الأسر المعيشية، مقابل ارتفاع معدلات الفقر والبطالة، واتساع الفجوة بين طبقات المجتمع (التفاوت الطبقي). ولكن سرعان ما أدت

(٩) Novy, Smith and Katrnak, "Inglehart's Scarcity Hypothesis Revisited": 685.

ثورة الاتصالات والمعلومات إلى إحداث تقارب بين المجتمعات المتقدمة والأخرى النامية وبين الثقافات المختلفة. وأصبحت الأسرة المعاصرة في مهبط جميع المتغيرات والمؤثرات الإقليمية والعالمية؛ مما جعلها تقع بين إيثاق جذور وقيم وتراث ومستحدثات عصرية استهلاكية وإعلامية وثقافية وترويجية تجذبها، سواء كانت ملائمة لخصوصيتها وهوية مجتمعها الثقافية أو غير ملائمة لأسلوب حياتها ومستوى دخلها الاقتصادي.

وبناء على ما تقدم، فإن نقطة النقاش هنا ليست البحث بتعمق في نواحي عدة حول القيم بشكل عام في المجتمع المصري في فترات تاريخية أو شرح أسباب تكوينها بإسهاب مفصل، بل هي ببساطة ستتجه إلى دور جيل الشباب في العقدين الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين، هذا الجيل الذي تأثر تأثراً مباشراً بتقنيات المعلومات والاتصالات الحديثة، والتي أدت إلى حدوث ثورتين في هذين العقدين.

ف نجد أن ما وفره الاقتصاد الكلي المقبول نسبياً وما تحقق من معدل نمو اقتصادي بلغ متوسطه خلال عقد ١٩٩٠-٢٠١٠، أضفى شرعية سياسية لنظام «مبارك» استندت إلى التوازن الشكلي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية. ولهذا سرعان ما تأكلت هذه الشرعية الصورية، وأصبحت العلاقة بين النظام والمجتمع أكثر هشاشة تدريجياً؛ بسبب عدم تقاسم فوائد النمو الاقتصادي عبر مختلف المناطق والطبقات الاجتماعية، وفشل الاقتصاد المصري في صنع فرص عمل كافية للشباب. ومنذ أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أصبح الوصف «المافيوي» لصيقاً بالنظام السياسي المصري باعتباره سلطة غير أخلاقية؛ نتيجة للمحسوبية والفساد والبيروقراطية الفاسدة.

وبناءً على ما سبق، فإن النمو الاقتصادي غير المتكافئ هو المتسبب في الثورات المصرية، إذ تركزت لطبقات اجتماعية واسعة الهامش وخاصة فئة المتعلمين من الشباب، وربما كانت كريستين لاغارد Christine Lagarde مديرة صندوق النقد الدولي واقعية في وصف هذا الوضع بالقول «إنه في الحياة اليومية الكثير من الأفراد قد استبعدوا»^(١٠).

(١٠) رمضان بن شعبان، «التغيير السياسي والعدالة الانتقالية في تونس في أعقاب ٢٠١١ توطيد الديمقراطية في مواجهة المصالحة الاقتصادية»، مجلة المفكر، العدد ١٤ (يناير ٢٠١٧): ٢٥٦.

بكل تأكيد، إن الطرح السابق الموجز سيسمح بفحص وضع جيل الشباب في مصر من حيث توجهاته القيمية أو بالأحرى القيم المادية وقيم ما بعد المادية، هذه القيم التي تم تقديمها، في التحليل السابق، كمجموعة متكاملة من عناصر الرضا العام عن الحياة كما جادل «إنجلهارت». ودائمًا وفي ظل الاكتفاء بفرضيتي الندرة والتنشئة الاجتماعية لهذا السياق النظري، فإن مصر منذ عام ٢٠١١ تقدم نموذجًا إمبريقيًا تجل بوضوح في رهانات قيمة متعددة الأوجه خاصة لدى جيل الشباب.

ففي البداية يبدو أن مصر منذ عام ٢٠٠٠ وإلى ثورة يناير ٢٠١١ وما بعدها، كانت قد عُرفت ببيئة تتسم بانعدام الأمن الاقتصادي والمادي أو الأمن الوجودي كقيمة مادية تراوحت بين الفقر والفقر المدقع، إذ تكشف البيانات أن نسبة الفقر في عام ٢٠١٠ تجاوزت ٢٥٪^(١١).

والمفارقة هنا وفقًا لمنطلقاتنا النظرية السابقة، هي أن الاقتصاد المصري في المقابل، وحسب بيانات البنك الدولي، قد عرف أيضًا معدل نمو سنوي قدره ٧,٢٪ خلال الفترة الممتدة بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨^(١٢)، وهو وضع يمكن أن يعزز الأمن المادي، ومع ذلك ظل الاقتصاد غارقًا في وظائف منخفضة الأجر والإنتاج، مع عدم وجود احتواء اجتماعي للمواطنين، وزيادة التفاوت الإقليمي الداخلي (المحافظات الحضرية مقابل الريف والصعيد). هذا، وبالرغم من النمو الاقتصادي الملحوظ وسياسات الحد من الفقر آنذاك، فإن سبب المشكلة هنا يكمن بصورة كلية في طبيعة النموذج الاقتصادي المتمركز في يد الدولة والمتميز بالحد من المنافسة وتغذية المحسوبية والإقصاء، وهكذا تعزز الشعور بالظلم الاجتماعي، الذي سرعان ما تحول إلى إحباط ومن ثم ثورة.

(١١) «مؤشرات الفقر وفقًا لبيانات بحث الدخل والإنفاق والاستهلاك»، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، يوليو ٢٠١٦، <http://shf.gov.eg/Income%20and%20Spending.pdf>

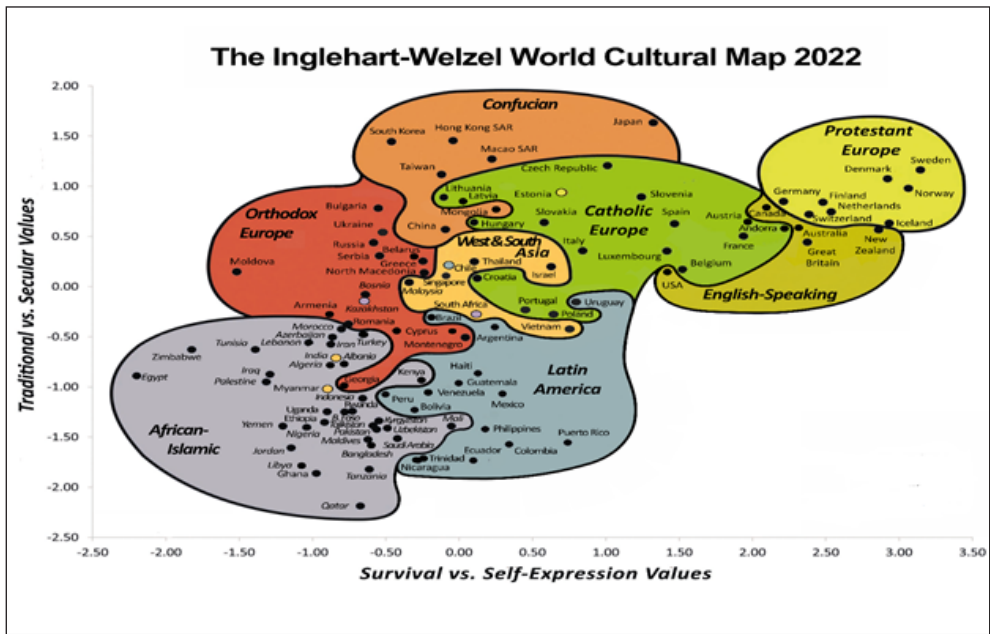
(١٢) «نمو إجمالي الناتج المحلي (٪ سنويًا)»، البنك الدولي، <https://data.albankaldawli.org/indicator/NY.GDP.MKTP.KD.ZG?end=2021&locations=EG&start=1961>.

وبدون أدنى شك أن تفاقم حالة الاستياء في فترة ٢٠١٠، قد كان لها وقع خاص على الشباب، ففي نهاية عام ٢٠١٠ ومطلع ٢٠١١ شهدنا اهتمامًا واسعًا بالبطالة والفقر في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام ومصر بشكل خاص في المنشورات العلمية والأدبيات المتعلقة بالاقتصاد السياسي والتنمية فضلاً عن منشورات المنظمات الدولية الرئيسية كالبنك الدولي، تتناول جميعها الفقر والتحول الديمقراطي ومشكلات الشباب. ومن جهتنا وضمن نفس الاتجاه، فإن تحليل البطالة والفقر ضمن هذا السياق سيحمل طابع القيم المادية ذات الصلة بالأمن المادي. ومن وجهة النظر هذه، فإن ثورة يناير ٢٠١١ تكشف عن وجود كبير للشباب العاطلين والفقراء، وهو الوضع الذي يمكن تفسيره على أنه نضال من أجل الحصول على سلع تركز اندماجهم في المجتمع الاستهلاكي كقيم مادية تعبر عن الأمن الوجودي.

وبرغم كل الأطروحات التي تؤكد وجود سمات ثابتة للشخصية المصرية، فإن ثمة تغيرات ارتبطت بالسياق السياسي والاجتماعي والثقافي، انعكست على الجانب القيمي في المجتمع بعد أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١، إذ إن الأحداث التي شهدتها مصر فرضت تغييرات كبيرة في منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية الإيجابية التي صاغت سلوك المصريين، وأفسحت المجال لبعض القيم الجديدة.

ولهذا نجد ما شهدته مصر من أحداث لم يقف مانعًا أمام بروز بعض قيم ما بعد المادية عند الشباب ضمن صورة جيل سياسي جديد، وهو الأمر الذي لم ينته عند هذا الحد، بل عند اختطاف الثورة من قبل جماعة الإخوان المسلمين المحظورة وحكم الإخوان للبلاد، خرج مرة أخرى المواطنون في ثورة عظيمة، ولكن هذه المرة لم تكن مقصورة على الشباب، ولكن اجتمع جميع فئات وأطياف الشعب المصري وخرج إلى الميادين يطالب بإسقاط نظام الإخوان المسلمين في ثورة ٣٠ يونية ٢٠١٣. وعند هذا الحد يمكن أن نرى أن الأخيرة مثلت تغييرًا جذريًا في العقليات والروح المعنوية؛ لكونها قامت على أفكار الحرية والتعددية السياسية، وكرامة الإنسان والعدالة الاجتماعية والدعوة إلى النزاهة في إدارة الشؤون العامة للدولة المصرية.

ووفق ذلك نجد أن عملية تحليل البيانات لمسح القيم العالمي تشير إلى مجموعة من النتائج حول النسق القيمي في العالم، وتمثل أهم هذه الحقائق في وقوع معظم الدول العربية والإفريقية بشكل عام ومصر بشكل خاص في الجزء الأيسر السفلي من الخريطة التالية^(١٣)؛ مما يدل على أنها تتصف بانتشار القيم المادية وقيم البقاء. وفي المقابل تقع بعض الدول الأوروبية البروتستانتية (السويد، الدنمارك، ألمانيا...) في الجزء الأيمن العلوي من الخريطة؛ مما يعني أنها تتصف بانتشار قيم ما بعد المادية كالتعبير عن الذات وحرية الرأي... إلخ. وبصورة عامة، يمكن القول إن قيم البقاء هي القيم المميزة لدول العالم الشرقي، وقيم التعبير عن الذات هي القيم المميزة لدول العالم الغربي طبقاً للمسح العالمي الأخير للقيم.



World Values Survey and European Values Study (2005–2022), see *World Values Survey (WVS)* (database), (١٣) www.worldvaluessurvey.org.

وكما هو معلوم مسبقاً أن الدين يؤدي دوراً محورياً في تشكيل نسق المجتمعات القيمي. فنجد أن غالبية العلماء والقائمين على المسح العالمي للقيم يعزّون توجه المجتمعات القيمي إلى مقدار ما يولي الدين من أهمية في حياة أفرادها. فإنه يمكنك التنبؤ النسبي بالتوجه القيمي لدى أفراد المجتمع كلما ارتفعت أهمية الدين في حياتهم، إذ نجد على حد تفسيرهم المجتمعات التي تولي الدين أهمية يملكون موقفاً محافظاً تجاه عمليات الإجهاض، والانتحار، والمثلية...إلخ. وكذلك لديهم ميل نحو الاحترام الزائد للسلطة، ولهذا وصف العلماء قيم هذا المجتمع بالتقليدية، وعلى العكس كلما تحرر المجتمع من الدين وأصبح أقل أهمية في حياته، مال إلى قيم ما بعد المادية.

وعلى سبيل المثال، عند تحليل بيانات الموجات السبع لمسح القيم العالمي يتضح أن العالم أصبح أقل تديناً من أي وقت مضى. فمنذ عام ٢٠٠٧ تناقصت أهمية الدين بالنسبة إلى الأفراد في معظم أنحاء العالم عما كانت في الفترة من عام ١٩٨١ إلى ٢٠٠٦ طبقاً للمسح العالمي للقيم. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نجد تفاوتاً كبيراً بين البلدان في أهمية الدين في حياة الأفراد، فعلى سبيل المثال، عند سؤال الأفراد عن مدى انخراطهم في الخدمات الدينية ومدى أهمية المعتقدات الدينية في حياتهم، تظهر بيانات المسح لعام ٢٠٠٠ أن ٩٨٪ من الجمهور في إندونيسيا يعدون الدين مهماً جداً في حياتهم، في حين إن ٣٪ فقط في الصين يعتقدون أن الدين مهم جداً في حياتهم، وأخذت هذه النسبة تنخفض أكثر^(١٤).

ولكن عند التطرق إلى هذه المسألة في المجتمع المصري نجد أن الأخير حافظ على مستويات عالية من أهمية الدين في حياة أفرادها على طول فترات المسوح، فعلى سبيل المثال نجد أهمية الله في حياة الأفراد في الموجتين المسيحتين الخامسة خلال الفترة (٢٠٠٥-٢٠٠٩) والسابعة والأخيرة خلال الفترة (٢٠١٧-٢٠٢٢) وأهمية الدين بنسب ٩٦,٩٪، ٩٦,٨٪ على التوالي^(١٥).

World Values Survey: All Rounds–Country-Pooled Datafile Version 3.0, see “World Values Survey Time Series (١٤) Data”, *World Values Survey (WVS)* (database), <https://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWVL.jsp>.

World Values Survey: Round Seven–Country-Pooled Datafile Version 4.0.0, see “World Values Survey (١٥) Wave 7 (2017–2022)”, *World Values Survey (WVS)* (database), <https://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWV7.jsp>.

وتأسيساً على ما تقدم، وفي حدود استعانتنا بنظرية «إنجلهارت» حول تغير القيم لدى الأجيال، نجد أنفسنا أمام إشكالية جوهرية يجب طرحها في هذا السياق، ألا وهي: كيف ظهرت قيم ما بعد المادية على جيل الشباب في مصر مع مطلع عام ٢٠١٣ في ظل غياب القيم المادية وتمسك الأفراد بالقيم الدينية؟

خاتمة

رغم كل الأطروحات التي تؤكد وجود سمات ثابتة للثقافة والقيم بالمجتمع المصري، فإنه ثمة تغيرات ارتبطت بالسياق السياسي والاجتماعي والاقتصادي، انعكست على الجانب القيمي في المجتمع المصري في العقد الأخير؛ إذ إن الأحداث التي شهدتها مصر فرضت تغييرات كبيرة في منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية، وأفسحت المجال لبعض القيم الجديدة، خاصةً بعد ثورة ٣٠ يونية ٢٠١٣ وتبني الدولة برامج الإصلاح الاقتصادي الجذري الذي نراه ملحوظًا في وقتنا هذا. وكما أسلفنا سابقًا عن قوة تأثير العولة في المجتمعات عامة والمجتمع المصري خاصةً، فنجد أنفسنا في مرحلة تشبه مرحلة التغير بين الأجيال في المجتمعات ما بعد الصناعية وفقًا لتغيير أولويات القيمة عند الأشخاص كما حدث في البلدان المتقدمة في حقبة زمنية سابقة.

وبناءً على ما تقدم، يتبين لنا أن مصر حالة خاصة لا يمكن تعميم نتائج مسح ونظريات عليها بشكل مجمل وعام، بل يجب دراسة المجتمع المصري بشكل مفصل ومنفصل، ومراعاة خصوصية هذا المجتمع وهويته؛ لأننا كما شهدنا من الطرح السابق يمكننا وصف المجتمع المصري بأنه يتسم بازدواجية قيمية (قيم مادية وقيم ما بعد المادية)، وهذا يستدعي إجراء مسح قومي شامل لقيم المجتمع المصري في السنوات الأخيرة.



قيمة البقاء عند المصريين

الدكتور عمار علي حسن

روائي وناقد وخبير في علم الاجتماع السياسي

ينشغل البشر جميعًا بالخلود، قبولًا بإفراط شديد كاسح ورفضًا بأقل القليل. من هذا ولدت غريزة البقاء، التي يتشارك فيها الإنسان والحيوان، وإن تفاوتت في تقدير الأسباب التي تؤدي إليها. فبينما هي عند الحيوان موثوقة بالافتراس والاستحواذ والهيمنة والجور على كل ما هو أدنى من القوة، لا تكون عند البشر بهذا الارتباط في كل حال؛ إذ إن العقل يهذب التوحش، خاصة مع التقدم الحضاري، إذ تُرفع قاعدة «البقاء للأصلح» في وجه «البقاء للأقوى» ويكون لل عمران والخيرية دور واسع في صنع البقاء، أو جلب الاستمرار على قيد الحياة، ويكون الإدراك محتلفًا لقيمة الحياة نفسها، وعلى النقيض إدراك الضرر المترتب على الموت^(١)؛ ما يعني، بمفهوم المخالفة، أن شعور الإنسان بفكرة البقاء قوي وراسخ.

وهذا البقاء الدائم، باعتبار الإنسان إن لم يكن أزلّيًا فهو أبدي اتكاء على الإيمان بخلود الروح، انشغل به المصريون منذ القدم، إذ اهتموا بحياة ما بعد الموت، وكان لهم تصورهم عنها، الذي ترجموه في الشق المادي من حضارتهم العريقة. فقد كان قدماء المصريين يقولون عن مات: «سافر طويلاً في الغروب»، أي أنهم قد أدركوا أن الموت رحلة فقط، ينتقل فيها الإنسان من عالم إلى آخر، وأن البعث قادم لا محالة. ولهذا كانوا يبنون مقابرهم في الغرب، ويقيمون بيوتهم بعيدًا عن النيل، في أحد أسرار الحياة الباقية إلى قيام الساعة.

(١) ديفيد ديجراتسيا، حقوق الحيوان: مقدمة قصيرة جدًا، ترجمة محمد سعد طنطاوي، مراجعة ضياء ورّاد (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤): ٧٢.

لم يقف المصريون في هذا الانشغال عمّا بعد الموت بالطبع، لكنهم عملوا على أن يكون قائماً في الدنيا، ليس للفرد فكل مولود لا محالة ميت؛ إنما لتواصل الوجود والاكتساب الاجتماعي، والعطاء الحضاري، والجينات المعرفية والثقافية، والقيام بالدور أو المهمة أو الوظيفة في المحل والإقليم والعالم.

وما يميز التجربة المصرية في «البقاء» أنها صنعت حضارة لها ارتباط بما بعد الموت، ولم تحول هذه القيمة إلى «منفعة بيولوجية»^(٢) ذنوية فقط، أو أيديولوجية عنصرية ترى أن غريزة البقاء لا بد من ارتباطها بالصراع المسلح^(٣)، مثلما وجدنا في بعض الأفكار المادية الغربية الحديثة والمعاصرة، التي أنتجت النازية والفاشية وما تقومان عليه من تبرير التوسع على حساب الغير، وفق نظرية «المجال الحيوي» وغيرها، ونراه أيضاً في سلوك الولايات المتحدة الأمريكية التي تهيمن على العالم المعاصر باسم تحقيق البقاء لإمبراطوريتها^(٤)، التي تفرط شديداً في استخدام القوة.

أولاً: بين البقاء والاستمرارية

لم تأتِ الأدبيات التي أرخت لتاريخ مصر وهندسة مجتمعه على ذكر كلمة «البقاء»، ربما لأن الجميع تعامل معها باعتبارها معطى طبيعياً، ومسلماً إنسانياً، وشيئاً مسلماً به، في حين تحدث الكل عن «الاستمرارية» في وجه «التغيير»؛ نظراً لأنه اصطلاح عملي قابل للترجمة في صيغة إجراءات وأمثلة وأدلة يمكن تقديمها كبراهين على أن المصريين قد احتفظوا على مدار آلاف السنين بقيم وطقوس ومعارف راسخة كالجبال الرواسي، لم ينل منها

(٢) عبد اللطيف الحرز، نقد «وهم الإله»: غرور النقد وإغراق الصنمية العلمانية، سلسلة غريب على الطريق (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٦): ٧٣.

(٣) عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢): ١٨٤.

(٤) نعوم تشومسكي، الهيمنة أم البقاء: السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم، ترجمة سامي الكعكي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤): ١٩.

استجابتهم للتحديات التي فرضها التطور الاجتماعي والمعرفي الذاتي، أو الثقافات والظروف التي اقتحمت عليهم حياتهم من هنا وهناك، بفعل الغزو أو التأثير الطوعي بالآخر.

ومن طبائع البشر، خصوصاً الذين ينتمون إلى حضارات قديمة، أن يحتفظوا من قديمهم بكل نافع، يرونه شيئاً أو معنىً باقياً في حياتهم، ولا يجدون أي تعارض بين استمراره في جديدها الذي يتدفق بلا هوادة. ما يعني أن الاستمرارية هي المسعى الإجرائي المعبر عن القيم والطقوس والتصورات الباقية.

وفي كتاب «شخصية مصر» يرى جمال حمدان أن ما استمر في حياة المصريين هو الأشياء المادية؛ أما الذي تغير فهو الأمور المعنوية، على اعتبار أن انقطاعاً قد وقع مع ماضيهم التليد باعتناق أغلبهم الإسلام ديناً، واتخاذهم العربية لساناً؛ ما أدى إلى توري أديانهم ولغتهم القديمة وغورها في قيعان بعيدة^(٥)، لا يمكن أن تُستعاد على حالها التي كانت عليها في القرون الغابرة. لكن هذا لا ينفي أبداً أن كل مستمر عبر التاريخ لا يخلو من تغيير خفي يسري في هدوء، ويغير على مهل الأحوال والتصورات والمعتقدات والآراء وحيل التكيف مع الواقع المتجدد.

لكن هذه الرؤية ينقصها التحليل الدقيق للثقافة الشعبية المصرية، التي لا تزال تحتفظ ببعض ما كان سائداً في مصر القديمة أو الفرعونية من أساطير وحكايات وحكم وأمثال وطقوس في الأفراح والأتراح وتصور عن السلطة السياسية أو أهل الحكم. وهي مسألة طبيعية ومفهومة، إذ «لا يوجد انقلاب أو تغير حاد مهما كان فجائياً بوسعه أن يقطع تماماً صلة الاستمرار بين الماضي والحاضر»^(٦)، في تاريخ أي بلد من البلدان.

ولا يقف هذا التواصل عند ما وعته النخبة الثقافية من تصورات ومعانٍ وأفكار وقيم عن الحقب الفرعونية، بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية؛ ما أدى إلى استيقاظ العناية

(٥) جمال حمدان، شخصية مصر، مكتبة الأسرة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥): ٢٠٣-٢١٦.

(٦) محمد شفيق غربال، تكوين مصر عبر العصور، مكتبة الأسرة. الأعمال الفكرية (القاهرة): الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦: ٢١.

بالمهوية الفرعونية مثلما عبر طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» وسلامة موسى في تصوره عن انتماء مصر، وما حاوله نجيب محفوظ من كتابة تاريخ مصر القديمة عبر روايات «عبث الأقدار» و«كفاح طيبة» و«العائش في الحقيقة»، وما استعادته مسرحيات لتوفيق الحكيم، وأطلت به، من بطون أعمال أدبية كثيرة ومتنوعة، شخصيات تاريخية وأسطورية مثل إيزيس وأوزوريس وحورس وهيبياتيا، ومعهم مشاهير الفراعنة، مثل بناء أهرامات الجيزة ومينا وأحمس ورمسيس ونفرتيتي وحتشبسوت وتحتمس وتوت عنخ آمون وغيرهم^(٧)، ثم ما تفاعل في الواقع فيما بعد إلى درجة أن البعض قد شرع يؤسس حزباً سياسياً أسماه «مصر الأم»^(٨) يجعل من المهوية الفرعونية إطاراً له، لكن لجنة الأحزاب رفضته، وتوقف بصفته تنظيمًا، لكنه لا يزال مستمرًا بصفته فكرة عند البعض.

كذلك ينقص رؤية جمال حمدان النظر العلمي المتأني في السياقات المرتبطة بالأديان، وتاريخية بعض نصوصها. فالناظر مليًا في هذا سيجد بصمات مصر القديمة حاضرة بقوة، وفيما ترجمه مقولة نيوبيري: «مصر وثيقة من جلد رقيق، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيرودت، وفوق ذلك القرآن، وتحت الجميع لا تزال الكتابة القديمة تقرأ بوضوح».

وقد أدرك بريستيد في كتابه «فجر الضمير» هذه المسألة، فقال: «إن التقدم الاجتماعي والحلقي الناضج الذي أحرزه البشر في وادي النيل الذي يُعد أقدم من التقدم العبري بثلاثة آلاف سنة، قد ساهم مساهمة فعلية في تكوين الأدب العبري، الذي نسميه نحن التوراة»^(٩). وللتوراة وشرورها تأثير في الكثير من تفسير القصص القرآني، فيما تأثرت العقيدة المسيحية بالتصور التثليثي الذي كان قائمًا في مصر القديمة، وكان للأديان السائدة في الأخيرة أثرها أيضًا في ما كان يدين به أهل شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام^(١٠)، بل إن بعض المعتقدات

(٧) حول كبار الفراعنة المستمر ذكر أسمائهم في الثقافة المعاصرة، انظر: بيير مونتيه، حياة مشاهير الفراعنة، ترجمة حسن نصر الدين، المركز القومي للترجمة ٢١١١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨).

(٨) حاول تأسيس هذا الحزب محسن محمد سعيد لطفى السيد (١٩٢٦-٢٠٠٩) وهو عالم مصريات وآثار مصري.

(٩) جيمس هنري بريستيد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة الأسرة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩): ١٣.

(١٠) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: مطبعة التفيض، ١٩٥٠).

التي تعتنقها شعوب شتى في جنوب شرق آسيا وإفريقيا لها أصول أو جذور في مصر قبل آلاف السنين.

ومع المسيحية والإسلام «استمر الكثير مما تعارف عليه المصريون منذ أيام الفراعنة كالعادات الجنائزية وصلة الأحياء بالأموات، ثم العادات الاجتماعية في الموالد والأفراح، والصلات الشعبية والروابط القروية والأسرية وغير ذلك مما ينظم العرف والتقاليد أحياناً كثيرة، ومما ينظم القانون في بعض الأحيان»^(١١). ومن هنا نجد أن المصري قد «جمع الفكر القديم والحديث في رباط ظاهره التناقض والمتناقضات، ولكن باطنه ينطوي مع ذلك على كثير من التوافق والتكافل»^(١٢).

ولم يقف التأثير عند حد الأديان والثقافات، بل يمتد إلى السياسة متمثلاً في جانب منها عبر فكرة «الماعت» أو العدالة التي عرفها قدماء المصريين، وكذلك فكرة «الحق الإلهي للملوك»، التي أعجب بها يوليوس قيصر بعد غزوه مصر، لكنه لم يتمكن من تنفيذها كاملة، لتكمن ثم تظهر في التحالف بين الملوك والكنيسة في أوروبا خلال العصر الوسيط، لتنتقل فيما بعد إلى بلاد فارس في تصورها عن «ملك الملوك»، ثم إلى بلاد المسلمين في العصر الأموي وما بعده^(١٣)، لتظل قائمة في التصور السياسي لبعض الجماعات الإسلامية عن «الحاكمية»، وفي تصرف بعض من يجلس على عروش البلاد المعاصرة ويظنون أنهم يستمدون حكمهم من الله - سبحانه وتعالى!

(١١) سليمان حزين، حضارة مصر: أرض الكنانة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩١): ٢٨٣.

(١٢) المرجع السابق: ٢٨٤.

(١٣) محمد سعيد العشماوي، الإسلام السياسي، ط ٣ (القاهرة: دار سينما، ١٩٩٢): ٤٠-٤١.

ثانيًا: صور البقاء في حياة المصريين المعاصرين

يعد المصريون من أشد شعوب العالم تجانسًا في الصفات العرقية والمقاسات الجسمية، ومن أكثرهم تشابهًا في السحنة والملامح. وقد أثبتت بحوث أن «الحين» المصري المتغلب يسكن أجساد نحو ٩٥ في المائة من سكان مصر المعاصرة. لكن الأمر لم يقف عند حد هذا «البقاء البيولوجي»، بل امتد إلى «البقاء الاجتماعي» و«البقاء النفسي» الذي توزع على صورتين هما البقاء في المكان والزمان.

١- البقاء في المكان

فمصر دولة قديمة، احتفظت بمكانها الأصلي طوال حياتها، إذ كانت تتمدد في أيام قوتها فتطوي أرضًا جديدة في الشرق والغرب والجنوب، لكنها حين تضعف لا تفقد أرضها تمامًا، فهي إن فقدت بعضها حينًا لا تلبث أن تستعيده، حتى وصلت إلى حالها الجغرافية التي نعرفها عليها الآن. حتى من احتلوا مصر لم ينزعوها من مكانها، أو يفقدوها وجودها، بل حافظوا عليه، وزادوه أحيانًا، مستسلمين في كل الأحوال لقدرة المصريين العجيبة على تذيب الغريب أو صهره.

والمكان هو الذي نظم علاقة مصر بالجوار والعالم، فأما الجوار فقد حددت الصحراء والبحار طبيعة الاتصال به بما حفظ لمصر طابعها الحضاري وشخصيتها التاريخية؛ وأما العالم فإن مصر كانت مجمع قارتين، ومفرق بحرين يمتدان بين الحار والبارد، فصارت الزاوية التي يجتمع عندها الشرق والغرب^(١٤)؛ ولذا لم يكن من المستغرب أن تقصدها كل قوة شرقية تريد السيطرة على الغرب، وكل قوة غربية تريد السيطرة على الشرق.

والبقاء في المكان هو أحد الأركان التي جعلت من مصر أمة، وليست «دولة» فقط، وهذه خاصية لا يتمتع بها سوى القليل في العالم القديم والمعاصر على حد سواء. فمصر لم تسبق بلاد العالم في قيام دولة وكيان سياسي فقط، لكنها تميزت عن غيرها من الدول التي ظهرت

(١٤) حزين، حضارة مصر: ١١٥.

لاحقًا ومرت بالظروف التاريخية والاجتماعية نفسها، بالمحافظة على وحدتها القومية عبر العصور، والتي أسهمت في تحقيقها بعض العوامل الإيكولوجية الخاصة بها، التي أعطت الدولة المصرية بتكوينها الاجتماعي والاقتصادي الذي تمارس عليه سلطتها، خصائص فريدة^(١٥).

وهذا أكسب المصريين اعتزازًا بأرضهم، وتمسكًا بها، وجعل عقيدة جيوشهم القتالية هي الدفاع عن الأرض، والتضحية في سبيلها، حتى إن المصري الأصل يتحدث دومًا عن رفضه التفريط في حبة رمل واحدة، ويتحدث الجندي عن مهمته الأساسية في حراسة الحدود من أي غازٍ أو مغير. وكل هذا يتم تحت إطار دستور، أتت نصوصه المتتابعة مع كل تغيير أو تعديل على ذكر الأرض، وآخرها دستور عام ٢٠١٤ المعدل ٢٠١٩، الذي تبدأ ديباجته بتعيين مكان مصر، فتقول:

«جمهورية مصر العربية بعبقرية موقعها وتاريخها قلب العالم كله، فهي ملتقى حضاراته وثقافته، ومفترق طرق مواصلاته البحرية واتصالاته، وهي رأس أفريقيا المطل على المتوسط، ومصب أعظم أنهارها: النيل» ثم تنص مادته الأولى على أن: «جمهورية مصر العربية دولة ذات سيادة، موحدة لا تقبل التجزئة، ولا ينزل عن شيء منها».

وجعل كل هذا المصري يعتز بالطين، وهو التعبير عن الأرض المزروعة أو التي يمتلكها فرد أو أسرة أو قبيلة حتى زمام القرى، التي لا يقبل أهلها أن يأتي غريب عن قريتهم ليمتلك زرعًا في زمامها، وإن حدث ينظرون إلى هذا دومًا باعتباره شيئًا لا يتوافق مع طبيعة الأمور. ولا يزال المصري ينظر إلى بيع أرضه المزروعة باعتباره عارًا، أو شيئًا كريهًا لا يقبل عليه إلا مضطرًا تحت ذل الحاجة الملحة.

ويندرج تحت الانتماء إلى أرض مصر بعمومها انتماءات فرعية تملأ نفوس أهل كل قرية أو عزبة أو نجع أو كفر أو مدينة أو حي، إلى المكان الذين يجيئون في رحابه، وينطبعون

(١٥) طاهر عبد الحكيم، الشخصية الوطنية المصرية: قراءة جديدة لتاريخ مصر، مكتبة الأسرة. إنسانيات (القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ٢٠١٢): ٦٣.

به، ويؤثرون فيه. لهذا يكون من الصعب على المصري أن ينخلع من مكانه مضطراً، لأسباب عديدة، وإن انخلع طوعاً فهو لا يكف عن الحنين إلى مكانه القديم.

وعلى مدار قرون طويلة بقي المصريون في أرضهم، لا يبرحونها أبداً، حتى ضاق بهم العيش في العقود الأخيرة فهاجروا إلى الشرق والغرب سعياً وراء الرزق، لكن الأغلبية الكاسحة من هؤلاء المهاجرين تحتفظ ببيوت في مصر، ولو حصلوا على جنسيات أخرى وتحققوا في المهجر، والكل يحرص على أن يمتلك مقبرة في أرض النيل، يدفن فيها بعد موته.

ولا يقوم إيمان المصريين المعاصرين بقيمة البقاء في المكان على نزعة شريرة، تنشأ من غزو أو إغارة على أرض الغير، وضمها والتشبث بها، فحتى أيام كان لمصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ «مجال حيوي» في محيطها الجغرافي، لم ترتبه على الاستيلاء والجزء؛ إنما على تشجيع الآخرين ليحذوا حذوها، ويكونوا معها وهي تقود الركب العربي، ورأينا كيف تركت مصر الفرصة للسودان كي ينفصل ويستقل، ولم ترص أن تقيم وحدتها مع سوريا على الإجماع.

حتى في التاريخ البعيد، لم يكن التوسع المصري الخالص مصحوباً بتوحش أو إفراط في سفك الدماء، وكان أغلبه دفاعاً متقدماً عن حدود مصر يجب فيه أن يصد الجيش العدو القادم لغزو مصر في أرض الشام، أو كان سعياً لاكتشاف منابع النيل وتأمينها، باعتباره شريان الحياة للمصريين، أو تعبيراً عن شعور بالاختلاف عن بقية الوحدات التي تشكل الإمبراطوريات المتعاقبة التي احتلت مصر وغيرها.

ورغم أن المكان عزيز في نفوس المصريين فإنهم لم يغلقوه أمام الغريب المستجيز أو الباحث عن ملاذ آمن. فعلى مدار التاريخ فتحت مصر أبوابها لمن قصدوها مهاجرين فارين من اضطهاد أو استبداد أو غزو وآخرهم الشوام والأرمن في العصر الحديث وأهل البلدان العربية التي شهدت اضطرابات شديدة وحروباً أهلية إثر تشبث المستبدين بكراسيهم التي ثارت عليها الشعوب. كما فتحت مصر الباب لمن أتعبهم السفر الطويل مثل الحجاج الإفريقيين والمغاربة الذين كانوا يفضلون البقاء فيها أثناء رحلة العودة من مكة.

٢- البقاء في الزمان

إذا كان المكان يثبت قائماً، خاصة في مصر قلب العالم، حيث لا تنقص الأرض من أطرافها، فإن الزمان لا يتوقف أبداً، ولا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه، فيوقفه أو يرجع به إلى الخلف إلا على سبيل التخيل أو التذكر، إذ من المستحيل استعادة الدقائق التي مضت بنفسها؛ إنما يعيد الفرد التفكير فيها أو الحنين إليها، أو الرغبة في العودة إلى ما كانت عليه.

والمصريون مولعون بالنظر إلى تاريخهم البعيد أو القريب، حتى إن هناك من بيننا من يعد أن كل البلاد تنهض حين تتقدم إلى المستقبل؛ أما مصر فتفعل هذا حين تنظر إلى الخلف؛ لأن ماضيها أفضل من حاضرها. وهو قول إن كان ينطوي على حسرة أو انكسار أو رغبة في عودة مصر إلى دورها الكبير الذي كان قائماً في العالم القديم، فإن له تجلياته في واقع الناس، والتي تتدرج من التقديس إلى الحنين مروراً بالتبجيل والنكوص بحثاً عن ملاذ نفسي آمن.

لكن هذه النزعة لا تخص المصريين وحدهم، فهي راسخة في وجدان أي إنسان يتقدم به العمر إلى الفناء المادي الدنيوي القادم لا محالة، وفي ثقافة كثير من الشعوب، ومنها الإسلامية جميعاً، التي تصل قديمها بجديدها، وتحتفظ بموروثها في قلب المعاصرة، وترجم هذا عملياً في استعادة ما كان سائداً في زمن مضى من ثقافة، والنظر بإكبار إلى من رحلوا، وتقديمهم على الذين يحيون بين ظهرانينا، ولو كانوا أفضل أو أقوى.

فمن بين المصريين مسلمون يرون أن العزة والتمكن يكون بالعودة إلى زمن الخلافة الراشدة، ومسيحيون يحنون إلى زمن ما قبل الفتح الإسلامي، ويستعيد بعضهم فكرياً ونفسياً زمن الاستشهاد الكبير، ويوجد من يؤمنون بأن الهوية الفرعونية هي وحدها القادرة على حمل اسم مصر في الزمن المعاصر، بما يُبقي دورها أو مهمتها التي ينتظرها منها العالم.

خاتمة

مع ارتباط قيمة البقاء في الثقافة المصرية بالخيرية، إلى حد كبير، يكون من الضروري ألا يظل البقاء جمودًا وقعودًا وخمودًا، ويجب ألا يعني التمسك بموضع خرب، والتشبث بأرض يباب؛ إنما هو احتفاظ بالمكان لا ينقص، مع تنميته باستمرار، بما لا يجعل عطاءه يتواصل فحسب، بل ينمو أيضًا.

ومن الطبيعي، بل المحبذ، أن يسيطر على الإنسان أحيانًا حنين إلى ماضيه، وكذلك يحدث للشعوب والأمم، لكن هذا يجب ألا يكون ارتجاعًا وارتدادًا إلى الخلف، في نكوص إليه، ورضًا به على حاله القديمة؛ إنما من الضروري أن تكون العودة بحثًا عن الجذور العميقة، والأصول الراسخة، التي تقف عليها القدمان في حين تتناول الأعناق لترى المستقبل البعيد، وتعمل من أجل الذهاب إليه بخطى واثقة.

قيم المواطنة والانتماء ومستقبل التنمية السياسية في مصر

الدكتورة إسرائء أحمد إسماعيل

مدير تنفيذي، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار

ترتبط عملية التنمية السياسية ارتباطًا وثيقًا بمفهوم المواطنة؛ نظرًا لما تنطوي عليه من قيم تعدد بمنزلة العمود الفقري لسلامة واستقرار أي مجتمع سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا؛ وترتبط المواطنة بدورها بالمجال العام الذي يتم في إطاره تشكيل الرأي العام. وفي ظل اتجاه العالم نحو العولمة وانتشار استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي أضحت المجال العام الافتراضي سلاحًا ذا حدين، فهو من ناحية يدعم فكرة المشاركة السياسية التي تعد الركيزة الأساسية للمواطنة ونجاح عملية التنمية السياسية، لكنه من ناحية أخرى أصبح يمثل إشكالية من خلال كونه وسيلة للاختراق الخارجي، بما يهدد قيم المجتمع وتماسكه.

ومن هذا المنطلق تظهر أهمية دور قيم المواطنة وركائزها، في ضوء ارتباطها بنجاح عملية التنمية السياسية، إذ يشغل مفهوم المواطنة موقعًا بارزًا في عملية بناء الديمقراطيات المأمولة، لما يعنيه من تطبيق قيم الحرية والمساواة والمشاركة في صنع القرار واحترام حقوق الإنسان، كما تبرز في هذا الصدد أهمية معرفة الكيفية التي يمكن من خلالها مواجهة التحديات والمخاطر التي تواجه المواطنة وتعوقها عن مواصلة عملية التنمية السياسية.

وفي هذا الإطار تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على العلاقة بين التنمية السياسية والمواطنة، ومكونات المواطنة التي تركز عليها في مواجهة مظاهر العولمة وسلبياتها، والإشكالية المرتبطة بدور المجال العام في تفعيل قيم المواطنة ونجاح عملية التنمية السياسية، والمخاطر التي يشكلها، وسبل مواجهة هذه التحديات والمخاطر.

أولاً: علاقة التنمية السياسية بالمواطنة

تعددت تعريفات التنمية السياسية وفقاً لعلماء السياسة، فوفقاً لـ«صمويل فاينر»، يحدد مستوى الثقافة السياسية السائدة في مجتمع ما مستوى التنمية السياسية، ويرى «صمويل هنتنجتون» أن التنمية السياسية تعني مأسسة المنظمات والإجراءات السياسية. وأوضح «لوسيان باي» أن التنمية السياسية تنطوي على مشاركة المواطنين في الأنشطة السياسية^(١)، مؤكداً دور التنمية السياسية في معالجة العديد من الأزمات، وفي مقدمتها أزمة الهوية، مضيفاً أنها تمهد الطريق للتنمية الاقتصادية، وتعد جانباً بارزاً من جوانب التغيير الاجتماعي، وتطبيق الديمقراطية، وتحديث ثقافة المجتمع السياسية^(٢).

كذلك من أبرز التعريفات العربية للتنمية السياسية، تعريف «نبيل السمالوطي»، إذ يرى أنها تعني تنمية قدرات المواطنين على إدراك مشكلاتهم، ومدى قدرتهم على تعبئة الإمكانيات لمواجهة المشكلات. ويشير «عبد المنعم المشاط» إلى أن التنمية السياسية تتضمن بناء المؤسسات، وتوسيع قاعدة المشاركة السياسية بهدف تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي^(٣). وفي ضوء ذلك، نجد أن التعريفات رغم تنوعها أجمعت على أن التنمية السياسية تهدف إلى بناء نظام سياسي ينطوي على ثقافة سياسية تستند إلى تطبيق قيم المواطنة، التي تشمل الانتماء، والتمتع بالحقوق وأداء الواجبات، وتهدف في النهاية إلى تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي.

(١) Evans Oluwagbamila Ayeni, "Political Development Theory, Its Criticism, and Application", in *Theories and Models of Public Administration and Development Studies*, edited by A. B. Amadasun and D. O. Salifu (n.p., 2018): 137, online e-book, https://www.researchgate.net/publication/338096169_POLITICAL_DEVELOPMENT_THEORY_ITS_CRITICISM_AND_APPLICATION.

(٢) هاني رمضان طالب، «التنمية السياسية.. مقارنة نظرية»، المركز العربي للبحوث والدراسات، ١٢ يوليو ٢٠٢٠، <http://www.acrseg.org/41673>

(٣) كاظم علي مهدي البياتي، «التنمية السياسية وأزمات النظام السياسي في العراق بعد عام ٢٠٠٣»، دراسات دولية، العدد ٥٦ (٢٠١٣): ١٢٦، مقالة إلكترونية متاحة عبر الإنترنت، <https://www.iasj.net/iasj/download/3145b8444e3fe345>

ومن هذا المنطلق تظهر أهمية المواطنة وعلاقتها بالتنمية السياسية، إذ تعد عملية اجتماعية ينخرط من خلالها الأفراد والجماعات في المطالبة بالحقوق أو فقدانها، وعلى هذا النحو، لا تستند المواطنة فقط إلى القوانين ولكن أيضًا إلى القواعد والممارسات، إضافةً إلى الهويات المتفق عليها اجتماعيًا^(٤)، ومع الوقت حاول العلماء تلافي بعض أوجه القصور من خلال تطوير المفهوم، إذ أكد عالم الاجتماع الأسترالي «ستيفن كاسلز» أن المساواة القانونية في الحقوق داخل المجتمع لا تعني بالضرورة المساواة في المعاملة والاحترام، فالمساواة الرسمية الشكلية قد تُخفي الإجحاف والتمييز الفعلي الذي يُمارس داخل المجتمع ضد فئات معينة. ومن هنا تبلور مفهوم «المواطنة متعددة الثقافات» Multicultural Citizenship، التي تأخذ في اعتبارها الاعتراف بحقوق المواطنين المستبعدين والمهمشين، وتعني نظام حقوق يحمي سلامة الفرد، مع الاعتراف بوجود مجموعة متنوعة من السياقات الاجتماعية والثقافية. فالمواطنة لا تعكس هوية تتجاوز الهويات الأخرى، بل إنها تحتوي مختلف الهويات^(٥).

ثانيًا: ركائز المواطنة في مواجهة العولمة

تتشكل هوية الفرد من انتماءاته، إذ ينتمي الفرد إلى الأسرة والمجتمع والدين والوطن والإنسانية عامة، ومن هنا يتضح أن دوائر الانتماء قابلة للتوسع، من الدائرة المحلية إلى العالمية. ويشتمل الانتماء على ثلاثة عناصر أساسية: الفرد الذي يسعى إلى النجاح وتحقيق ذاته، والجماعة التي ينتمي إليها، وقضية تربط الفرد بالجماعة، فإذا ما حدث خلل في أحد هذه العناصر، تأثرت العناصر الأخرى، واهتزت قيمة الانتماء وهوية الفرد^(٦). وتشكل انتماءات الفرد إضافة إلى التمتع بالحقوق وأداء الواجبات أبرز مكونات المواطنة التي تُعبّر عن علاقة بين الفرد والدولة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وقانونية.

(٤) Engin F. Isin and Bryan S. Turner, *Handbook of Citizenship Studies* (London: Sage, 2003): 4.

(٥) Stephen Castles, "Multicultural Citizenship: A Response to the Dilemma of Globalization and National Identity?" *Journal of Intercultural Studies* 18, no. 1 (April 1997): 5, 14.

(٦) أحمد الأنصاري، الانتماء فلسفة وتجربة، تقديم حسن حنفي (القاهرة: مركز الكتاب، ٢٠١١): ١٥-١٧.

ويتجلى البعد الاجتماعي في دور الدولة في ضمان الفرص المتكافئة لجميع المواطنين في التعليم، والرعاية الصحية، والعمل، ومختلف الخدمات؛ وذلك عبر تبني نظام اقتصادي يُمكن الدولة من الوفاء بهذه الالتزامات. ويعني البعد السياسي تمتُّع المواطنين بالمشاركة في عملية صنع القرار من خلال تطبيق مبدأ الديمقراطية التشاركية والتداول السلمي للسلطة، وتعزيز المناخ الديمقراطي، واحترام مبدأ التعددية القائم على مفهومي التنوع والاختلاف في إطار حضاري يُعلي مبدأ التنوع في إطار الوحدة، ويستوعب التمايز الثقافي والديني والعرفي^(٧).

وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية الثقافة السياسية السائدة في المجتمع لما لها من تأثير مباشر في الهوية الوطنية، ويشير مفهوم الثقافة السياسية إلى نمط الاتجاهات الفردية للتفكير تجاه القضايا السياسية والاجتماعية^(٨). وتؤدي الثقافة السياسية دوراً هاماً في دعم عملية التنمية السياسية، إذ تساعد على زيادة وعي المواطنين وجعل المجال العام -الذي سيأتي تفصيله لاحقاً- أكثر انفتاحاً وقابلية للدخول فيه من قِبل مختلف الفئات الاجتماعية، مع تقبل الآخر واحترام الاختلاف، إذ تُعد الثقافة خط الدفاع الأول لأي مجتمع في مواجهة محاولات اختراقه أو احتوائه، التي تتخذ أحد مسارين:

الغزو الثقافي من خلال مظاهر العولمة المتمثلة في التقنيات التكنولوجية الحديثة ووسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي، والتي أسهمت في نشر قيم أصبحت تتسم بالعالمية كالحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وهي إن كانت قيماً إيجابية تستهدف تقدم المجتمعات والنهوض بثقافتها، فإن توظيفها السياسي ومحاوله فرضها من قِبل بعض القوى الخارجية الغربية، دون الأخذ في الاعتبار خصوصية المجتمع، أدى إلى ظهور سلبيات اجتماعية عديدة، من أبرزها توارى سمات المجتمع الثقافية والحضارية، في مقابل بروز

(٧) الحسن بن طلال، حول المواطنة في الوطن العربي: مقالات وأوراق أولية، مراجعة همام غصيب، ط. ٢، سلسلة كراسات المنتدى ٦ (عمان: منتدى الفكر العربي، ٢٠٠٩): ١٣-١٤.

(٨) جابرييل أ. الموند، وج. بنغهام بأول الابن، السياسة المقارنة، ترجمة أحمد علي أحمد عناني، الفكر السائر (القاهرة: مكتبة الوعي العربي، ١٩٨٠): ٤٩.

سمات جديدة، تحوّل الفرد في إطارها إلى مُتلقٍّ، ومستهلك لمختلف السلع المادية والثقافية الواردة من الخارج، بما يؤدي إلى طمس هوية المجتمع.

أما المسار الثاني، فقد ظهر أيضًا نتيجة حالة الفراغ الثقافي وتراجع مستويات التعليم وضعف التفكير الناقد، بالتزامن مع الضغوط الاقتصادية؛ مما يتسبب في حدوث خلل في دوائر الانتماء التي تشكل في مجملها مصدر هوية المواطن، وهو ما أدى إلى لجوء البعض خاصةً من الشباب إلى التطرف والتعصب.

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى مسح القيم العالمي الذي أُجري على منظومة القيم التي تحكم الشعوب في عدد من دول العالم ومن بينها مصر، على ثلاث فترات متعاقبة من عام ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٩، ومن عام ٢٠١٠ إلى ٢٠١٤، ومن عام ٢٠١٧ إلى ٢٠٢٢. وقد أظهر المسح الذي أُجري في الفترة من عام ٢٠١٧ إلى ٢٠٢٢ اعتزاز وفخر المواطن المصري بجنسيته، إذ أكد ٩٤,٦٪ من المبحوثين فخرهم الكبير بانتمائهم إلى الجنسية المصرية^(٩)، أي أن الغالبية العظمى تشعر بالفخر لانتمائها إلى الجنسية المصرية، مقابل ٩٦,٥٪ في المسح الذي أُجري خلال الفترة من عام ٢٠١٠ إلى ٢٠١٤^(١٠)، وذلك مقارنة بنتائج المسح في الفترة السابقة لها من عام ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٩، إذ أكد ٩٧,٩٪ من المبحوثين شعورهم بالفخر لانتمائهم إلى الجنسية المصرية^(١١).

وفي ضوء ما سبق، يتضح أنه على الرغم من استمرار اعتزاز وفخر المواطن المصري بانتمائه إلى جنسيته، فقد حدث تراجع طفيف في تلك النسبة من مرحلة مقارنة بالمرحلة التي تسبقها. ويمكن القول إنه وإن كان الانخفاض بنسب ضئيلة فهو لا ينفي دلالة

(٩) World Values Survey Wave 7 (2017–2022), World Values Survey (WVS) (database), <https://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWV7.jsp>.

(١٠) World Values Survey Wave 6 (2010–2014), World Values Survey (database), <http://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWV6.jsp>.

(١١) World Values Survey Wave 5 (2005–2009), World Values Survey (database), <http://www.worldvaluessurvey.org/WVSDocumentationWV5.jsp>.

التراجع، ما يلفت النظر إلى ضرورة الانتباه إلى هذا التغيير ومحاولة مقاومة أسباب هذا التراجع.

وفي استطلاع للرأي أجرته وكالة «أصداء بي سي دبليو» (ASDA'A BCW)، حول رأي الشباب العربي في بعض القضايا عام ٢٠٢٢، والذي أجري على ٣٤٠٠ شاب عربي داخل ١٧ دولة عربية من ضمنها مصر، تتراوح أعمارهم من ١٨ إلى ٢٤ سنة، كشفت نتائجها عن أن ٤١٪ من الشباب عدّوا الدين العنصر الأهم في التعبير عن هويتهم (بنسبة زيادة ٧٪ مقارنة بعام ٢٠٢١)، يليه الانتماء الوطني، ثم العائلة أو القبيلة، ثم الانتماء العربي^(١٢). مما يؤشر إلى فكرة تباين عوامل الانتماء داخل المجتمع، إذ يفترض البناء الاجتماعي السليم أن يحتل الانتماء إلى الوطن المقام الأول في قائمة الانتماءات، مع احترام قيمة الدين؛ لأن عقيدة الفرد هي جوهره وأساس تفكيره وسلوكه.

وفي ضوء ذلك يمكن ملاحظة تراجع الثقافة السياسية المشتركة، وإيجاد ثقافات سياسية فرعية، تعكس الانتماءات الفرعية المتدرجة في قيمتها بالنسبة إلى أفراد المجتمع، ومن هنا تتور الخلافات فيما يتعلق بترتيب انتماءات الفرد حسب أسبقية بعضها عن البعض الآخر، إذ يثور نوع من الصراع بين الانتماء القومي والانتماء الديني، ومن المرجح أن يتواصل الصراع بين أنصار الانتماءات المختلفة، مثل الدينية والقومية، والعالمية والمحلية، إذ يؤدي قصور الوعي الثقافي السائد إلى الفهم الخاطئ لمعنى الانتماء وضيق مفهومه ووقوع مثل هذا النوع من التنافس أو الصراع الذي يؤثر في درجة انتماء الفرد إلى الوطن، ومن ثم في تطور عملية التنمية السياسية^(١٣).

14th Annual ASDA'A BCW Arab Youth Survey, *BCW Global*, 21 September 2022, <https://www.bcw-global.com/newsroom/global/14th-annual-asdaa-bcw-arab-youth-survey>. (١٢)

(١٣) الأنصاري، الانتماء فلسفة وتجربة: ٩٠-٩١.

ثالثاً: المواطنة والتنمية السياسية وإشكالية المجال العام

كما تؤدي المواطنة دوراً أساسياً في عملية التنمية السياسية، ترتبط المواطنة بدورها بعلاقة وثيقة بالمجال العام (الواقعي والافتراضي)، الذي يُعبّر عن الساحة التي يجتمع فيها المواطنون، ويتبادلون الآراء ويتناقشون حول الشؤون العامة والاهتمامات المشتركة، حتى يتمكنوا في النهاية من تشكيل الرأي العام^(١٤). فالمواطنة تعبّر عن جملة من الحقوق والواجبات تتحقق من خلال قدر من المعرفة والثقافة التي يعد المجال العام بشقيه الواقعي والافتراضي (أو الإلكتروني) أحد مصادرها.

وقد تسبب انتشار الإنترنت واستخدام شبكات التواصل الاجتماعي في تسهيل عملية الحصول على المعلومات، وحرية التعبير عن الرأي، ما وفر إمكان إيجاد مجال عام إلكتروني من خلال التعارف والتواصل والتجمع الافتراضي لأفراد لم يلتقوا من قبل، وأتاح فرصة تخطي العقبات المقيدة للمجال العام الواقعي، وذلك يُعد من أهم آليات العمل الديمقراطي. فالمجال العام هو المساحة التي يلتقي فيها الأفراد للنقاش وتبادل الآراء بحرية في ظل احترام القانون الذي يضمن حرية وحق الجميع في إبداء رأيهم، وفي ظل شيوع ثقافة سياسية تتضمن الحوار وتقبّل الآخر أي ثقافة المواطنة، ومن ثم يعد المكان الذي يتم من خلاله تطبيق قيم ومبادئ المواطنة، وتبلور من خلاله عملية التنمية السياسية. وبدون وجود مجال عام فعّال وديمقراطي لا يمكن مساءلة المسؤولين الحكوميين، ولن يتمكن المواطنون من تحقيق المشاركة الاجتماعية والسياسية التي تجسّد حقوق المواطنة، ومن ثمّ تتعطل عملية التنمية السياسية المرجوة، وعليه فإن توافر مجال عام صحي وديمقراطي يعزّز ثقافة وقيم المواطنة، التي بدورها تتضمن استمرار عملية التنمية السياسية في مسارها المأمول^(١٥).

Jurgen Habermas, *Between Facts and Norms: Contributions to a Discourse Theory of Law and Democracy* (١٤) (Cambridge: Polity, 1992): 360.

Communication for Governance and Accountability Program (CommGAP), *The Public Sphere* (١٥) (Washington, DC: The World Bank, 2009): 1–2, online e-book, <https://documents1.worldbank.org/curated/en/161991468155123204/pdf/526270BRI0PubS10Box345574B01PUBLIC1.pdf>.

ومع ذلك فقد يتعرّض المجال العام الافتراضي أو الإلكتروني للتضرر، إذ تتسبب قدرة الإعلام الإلكتروني على عرض مزيد من الآراء وتوسيع نطاق النفاذ إلى المعلومات في تشتيت أفكار أفراد المجتمع وزيادة الجدل والخلاف حول بعض القضايا مع ملاحظة زيادة حدة العنف اللفظي بين الآراء المتباينة، مثل: الجدل حول دور المرأة وحقوقها، أو بشأن تجديد الخطاب الديني، وغيرهما من الموضوعات التي أظهرت صعوبة عملية التوصل إلى توافق في الرأي العام، مما يؤثر سلبًا في المجال العام، إذ يؤدي ذلك إلى تراجع قدرة الرأي الفردي على التأثير في عملية صناعة القرار بسبب حالة التزاحم الشديدة في الآراء، مما قد يقود إلى حالة من التفكك والتشردم داخل المجتمع، إلى جانب أن سهولة استخدام الإنترنت والتعبير عن الرأي سهّلت إمكانية الدخول والخروج إلى المجال العام الافتراضي، مما يؤثر في فكرة الاستمرارية ومصداقية التفاعلات التي تتم في إطار المجال العام الافتراضي^(١٦).

كذلك قد ينحرف المجال العام الافتراضي أو الإلكتروني نحو جزر متباينة من التواصل السياسي، فعلى الرغم من أنه يدعم حرية التعبير والنقاش، فقد يتسبب في انغلاق مجموعات ذات مرجعية معينة على نفسها، أي الانقسام إلى مجتمعات صغيرة من الأشخاص المتشابهين في التفكير، فيما يطلق عليه Cybergheffos^(١٧)، واللجوء إلى تصفية الآراء المخالفة، فيما يعرف بظاهرة «فقاعات التصفية» Filter bubbles^(١٨)، فنجد على سبيل المثال على منصة فيسبوك صفحات مثل: «هويتنا مصرية لا عربية»، و«هويتنا عربية إسلامية ونفتخر»، وغيرهما، مما يتسبب في إيجاد مجالات عامة افتراضية أو إلكترونية متشردمة ومتصادمة، بما يهدد الهدف الرئيسي من إيجاد المجال العام الإلكتروني؛ وهو التواصل الحر والنقاش المفتوح واحترام التنوع الثقافي، ومن ثم يصبح المجال العام الإلكتروني غير ضامن لحقوق المواطنة، ومعوقًا لمسار التنمية السياسية المأمولة في المجتمع.

(١٦) أماني المهدي، معد، «المجال العام من الواقع الفعلي إلى العالم الافتراضي: معايير التشكل والمعوقات»، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية السياسية، ٢٠ مارس ٢٠١٨، <https://democraticac.de/?p=53184>.

(١٧) Peter Dahlgren, "The Internet, Public Spheres, and Political Communication: Dispersion and Deliberation", *Political Communication* 22, no. 2 (2005): 152. Online e-article, <https://www.tandfonline.com/doi/pdf/10.1080/10584600590933160>.

(١٨) Eli Pariser, *The Filter Bubble: What the Internet is Hiding from You*, 2nd ed., Reprint (London: Penguin, 2012): 3, (١٨) online e-book, <https://fs.blog/the-filter-bubble-what-the-internet-is-hiding-from-you/>.

رابعًا: سبل المواجهة

ترتبط قوة الدولة بعمق هوية شعبها، وهو ما يعني قوة الانتماء الوطني الذي يتوافر عبر وحدة المجتمع من خلال إحساس الأفراد باختلاف هوياتهم بتمتعهم بحقوقهم، وإدراكهم لواجباتهم وقدرتهم على القيام بها، أي تطبيق قيم المواطنة، أخذًا في الاعتبار أن المجال العام الصحي الديمقراطي (سواء الواقعي أو الافتراضي) هو المكان الذي يتم فيه تطبيق وممارسة قيم المواطنة. ومن ثمّ، فإن حدوث مشكلة في مصادر الانتماء، أو خلل أو انحراف المجال العام يترتب عليه خلخلة قيم المواطنة، وتوقف عملية التنمية السياسية. ومن ثمّ، يرتبط مستقبل المواطنة والتنمية السياسية بعدد من العوامل:

١- تطوير المؤسسات

فترتبط التنمية السياسية بمدى قدرة مؤسسات الدولة الخدمية والتعليمية والثقافية على القيام بوظائفها بكفاءة وفاعلية، من خلال إدارة التنوع الثقافي، بهدف فهم وتطوير التفاعل الإيجابي بين المواطنين الذين ينتمون إلى خلفيات ثقافية مختلفة، لتحقيق التوافق بينهم، وذلك ليس فقط بهدف توفير بيئة حياة وتعلم وعمل قادرة على استيعاب الاختلافات بين أعضائها، بل تعظيم طاقاتهم وتحقيق أقصى استفادة ممكنة من التنوع والخصائص البشرية المختلفة ثقافيًا وقيميًا وتنظيميًا لأعضاء المجتمع، عبر دمج المهارات والمعارف المتنوعة^(١٩).

ويعزّز ذلك توافر ثقافة سياسية قائمة على فكرة شرعية الإنجاز وتجاوز الولاءات الفرعية المتنوعة، في مقابل الولاء القومي تجاه الوطن، إلى جانب وجود سياسات عامة تضمن تغليب المصلحة العامة على المصالح الذاتية للأطراف المختلفة، وتقوم على معايير المشاركة والنزاهة والشفافية واحترام الغير، واعتبار التنوع مصدرًا للإثراء المجتمعي وليس لتقسيمه.

(١٩) بلعباس عبد الوهاب، «آليات التنشئة التنظيمية وإدارة التنوع الثقافي في المؤسسة: دراسة تحليلية»، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٦ (٢٠١٦): ٧١.

٢- تعزيز قيم المجتمع

يرتبط ذلك بالقدرة على علاج اختلال التوازن القيمي في المجتمع، إذ إن قيمة المواطنة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة العقد الاجتماعي، التي تقوم على أساس قبول فكرة اختلاف الآراء والمصالح، ووجود مجال عام واقعي أو افتراضي منفتح على جميع الآراء، في ظل وجود هدف أو غاية مشتركة واحدة يهدف الجميع إلى تحقيقها وهي ضمان الصالح العام، وفي نفس الوقت احترام المصالح والانتماءات الفرعية الخاصة بالأفراد واحترام حقوقهم، بما يضمن مشاركة مختلف فئات المجتمع^(٢٠).

وفي هذا الإطار، تبرز ضرورة اهتمام مراكز الفكر المصرية بإجراء المسوح الاجتماعية بشكل دوري، تلك التي تعكس حالة المجتمع وتوجهات أفرادها ومطالبهم واحتياجاتهم، لقياس التوجهات والتغيرات القيمية والطبقية التي يشهدها المجتمع بشكل دقيق. وذلك في ضوء عدم توافر مؤشرات إلى الوقوف على هذه التغيرات وتحديد مسارات التحرك المطلوبة بدقة، وفي ظل افتقار المسوح الدولية إلى الموضوعية، وميلها إلى تبني توجهات معينة تخدم مصالح دولها.

٣- تعزيز الحوار التنموي

تحتاج عملية التنمية السياسية إلى اتخاذ قرارات سريعة، وإلى وجود إرادة سياسية ومجتمعية حقيقية. وفي هذا الإطار، عادةً ما تشهد الدول التي عانت ثورات وتغيرات خلال المراحل الأولى من التغيير الاعتماد بشكل محدود على مبدأ التشاور أو المشاركة، في حين لا يمكن أن تحقق المراحل التنموية التالية النجاح والإنجاز المطلوب إلا من خلال الاعتماد على أكبر قدر من المشاركة، لكنه في حالات المراحل الانتقالية مثل التي شهدتها مصر وبعض دول المنطقة، قد يكون من الصعب تحقيق هذا الشرط؛ لأن القرارات التنموية قد

(٢٠) مصطفى علوي، ومحسن يوسف، معدون، الإعلام والديمقراطية والمسؤولية الاجتماعية، تقديم إسماعيل سراج الدين (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٩): ٩١-٩٣.

تتضمن إحداث تغييرات اجتماعية كبيرة، فلو تم طرح كل قرار للتشاور والمشاركة، فإن ذلك قد يواجه مقاومة من النخب التقليدية المنتفعة من الوضع القائم، ومن ناحية أخرى قد يستغرق وقتًا طويلاً حتى يتم الاتفاق عليه، وهو ما سيؤخر تحقيق التنمية المنشودة^(٢١). وفي ضوء استيعاب القيادة السياسية لهذه المعضلة جاءت دعوة الرئيس «عبد الفتاح السيسي» إلى إجراء الحوار الوطني بكل ما يحمله ذلك من آمال وتطلعات للتوافق حول الأولويات والأهداف ومسارات التحرك المستقبلية.

خاتمة

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن تحقق المواطنة يعد شرطاً ضرورياً لنجاح عملية التنمية السياسية التي تعد عملية ديناميكية تحتاج إلى دعمها باستمرار من خلال تفعيل ركائز المواطنة التي تتمثل في احترام حقوق المواطنين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتفعيل المشاركة الحقيقية للمواطنين في مختلف مجالات الحياة، من خلال مجال عام ديمقراطي، ينطوي على احترام الاختلاف والتنوع، بما يعزز من الشعور بالانتماء إلى الوطن، الأمر الذي يقتضي حماية الثقافة والهوية الوطنية من محاولات الاختراق أو الاحتواء الخارجي التي تسعى إلى التأثير سلباً في المجال العام، بحيث تصبح المواطنة ثقافة من خلال الحفاظ على المكونات الثقافية المستنيرة في مواجهة القيم الثقافية السلبية، كما أن شيوع ثقافة المواطنة يرتبط بتطوير المؤسسات والأدوات الثقافية والارتقاء بدورها وتفعيله، بما يضمن الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الأخرى من موقف قوة وتأثير وليس من ضعف؛ لبناء نهضة حقيقية وتحقيق ونجاح التنمية السياسية.

(٢١) أحمد رشيد، إدارة التنمية: تجارب عربية (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٢): ٣١-٣٢.



القراءة والسلوك المؤيد للبيئة لدى الشباب: نحو خطة متكاملة لبناء الوعي

ريهام صلاح خفاجي

باحث بمركز الدراسات الاستراتيجية، مكتبة الإسكندرية

تُعد قضية الوعي بمنزلة «قضية القضايا» في المجتمع المصري، ودائمًا ما كانت التحدي الكبير للسياسات الحكومية والأفكار الداعية إلى الإصلاح الاجتماعي وتغيير أنماط السلوك وقيم الأفراد. ولأن إشكالية الوعي مسألة متداخلة ومتشابكة ومستمرة تحتاج إلى وقت وجهد، لذا ينبغي استمرار الدراسة والبحث في الأبعاد المباشرة وغير المباشرة ذات الصلة بقضية تشكيل الوعي، وأهمية دور الفرد ومشاركته في التصدي للقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية محليًا وعالميًا. ومن بين أنواع الوعي المختلفة، تركز الدراسة في الوعي البيئي وخاصةً بعد أن استضافت مصر الدورة السابعة والعشرين من مؤتمر الأطراف لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية حول تغير المناخ لعام ٢٠٢٢.

وفي ضوء ذلك، تستند الدراسة إلى فرضية رئيسية، وهي دور تغيير السلوك في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، بالتركيز في العلاقة بين السلوك المؤيد للبيئة «Pro-environmental Behavior» وعادات القراءة بين الشباب من خلال عرض أدلة ونتائج دراسات سابقة ذات صلة. وتسلط الدراسة الضوء على أهمية تضمين دراسة السلوك المؤيد للبيئة ضمن خطة أبحاث علم الاستدامة «Sustainability Science» الذي يركز في التفاعلات الحيوية بين الطبيعة والمجتمع، وضرورة السعي نحو فهم أكثر شمولية للتغيرات السلوكية التي يمكن أن تسهم في تحقيق أهداف التنمية المستدامة بشكل عام، وبما يتكامل

مع اهتمام الدولة المصرية بالنهوض بالوعي في المجتمع المصري، خاصةً الوعي البيئي ويعزز تكامل خططها ومشروعاتها نحو تحقيق ذلك، ومنها «المشروع الوطني للقراءة».

أولاً: «الوعي» بعيون المواطنة العالمية

تُولي مصر اهتماماً كبيراً لقضية النهوض بوعي المواطن المصري؛ فهي كما وصفها الرئيس عبد الفتاح السيسي «قضية القضايا في مجتمعاتنا»^(١). وقضية الوعي ليست بمجيدة على المجتمع المصري، ودائماً ما كانت بمنزلة التحدي للسياسات الحكومية والأفكار الداعية إلى الإصلاح الاجتماعي وتغيير أنماط السلوك وقيم الأفراد. ولكن بمرور الوقت وصولاً إلى عالمنا اليوم، اكتسبت قضية الوعي مفهوماً أكثر اتساعاً وشمولية، وتخطى مفهوم الوعي الأطر الرسمية وابتكر أنماطاً جديدة لا تعترف بأي حدود. وأصبح المواطن المصري مواطناً عالمياً، بعد أن انتشر مصطلح المواطنة العالمية، وتكرس رسمياً، بعد نشر منظمة اليونسكو وثيقة أهداف التنمية المستدامة.

ومفهوم «المواطنة» بشقيه المحلي والعالمي يضع على عاتق المواطن ضرورة الوعي بأهمية دوره ومشاركته في التصدي للقضايا العالمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية، وخاصة بعد تجربة التصدي لانتشار جائحة كورونا التي وحدت الجميع أمام المعاناة. وأدركنا جميعاً أهمية تنشئة جيل جديد متمكن علمياً وفكرياً، قادر على أن يسهم بفاعلية في قضايا العالم ومواجهة تحدياته. والأمر لا يكتفي بالدعوة إلى التفكير النقدي بشأن القضايا العالمية، بل أيضاً المشاركة الفعلية في حلها. وهذا الأمر يتطلب قدرًا من المعارف المتشابهة والمعقدة؛ ومن ثم يستوجب إعداد مواطن يمتلك الحد الأدنى من الثقافة التي تساعده على مواكبة العيش في القرن الحادي والعشرين المليء بالتحديات والتحويلات.

(١) «الرئيس السيسي: الوعي قضية القضايا في مجتمعاتنا... الاقتتال والجهل يؤذينا جميعاً»، الشروق، ٢٨ أكتوبر ٢٠٢١
<https://cutt.ly/OBE3bPC>

ولأن الوعي، بشكل عام، مسألة متداخلة ومتشابكة ومستمرة تحتاج إلى وقت وجهد؛ فإذا أردنا الإجابة باختصار عن سؤال: كيف يتغير الوعي؟ فيمكن تلخيصه في نظريتين رئيسيتين؛ «الأولى: نقول إن تغيير الوعي يكون بتغيير مضمون القيم والاتجاهات الموجودة لدى الإنسان من خلال تغيير الرسائل الثقافية والفكرية التي تبثها أدوات التنشئة الاجتماعية. ويندرج في هذا الإطار الدعوات إلى إعادة كتابة المناهج الدراسية، ومضمون الرسالة الإعلامية، وكل ما يتصل بالسياسة الثقافية. والثانية: تنطلق من أن الوعي علاقة بين الإنسان وواقعه وبيئته، وأن استقرار القيم والاتجاهات لديه مرتبط بالواقع المادي الذي يعيشه. و يترتب على ذلك أن أسلوب النصح والإرشاد وبث الرسائل الفكرية من خلال المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية، لن يؤدي في حد ذاته إلى تغيير الوعي؛ لأن تغييره يتطلب وفق هذه النظرية تغيير البيئة المادية المحيطة بالإنسان»^(٢). ويجدر بالذكر أن الدول لجأت إلى تبني سياسات تستفيد منهما وتمزج بينهما وفق كل حالة، أي أن لكل من الرأيين ما يدعمه، وفيه قدر من الصحة.

وللوعي أنواع عديدة؛ منها الوعي السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والديني، والقانوني، والبيئي، والتكنولوجي، والثقافي، والصحي، والأمني، وباختلاف كل منها على المستوى المحلي أو القومي أو العالمي. ونوجه التركيز في هذه الدراسة إلى أهمية التغيير السلوكي نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة، وكيفية تنمية «الوعي البيئي» وتكوين السلوك المؤيد للبيئة من خلال تنمية مهارات القراءة لدى الشباب بشكل خاص، وذلك عقب استضافة مصر للدورة السابعة والعشرين من مؤتمر الأطراف لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية حول تغير المناخ لعام ٢٠٢٢^(٣).

(٢) علي الدين هلال، «إشكالية تغيير الوعي في المجتمع المصري»، الأهرام ١٤٦، العدد ٤٩٢٩٣ (٢١ نوفمبر ٢٠٢١)، مقالة إلكترونية متاحة عبر الإنترنت، <https://cutt.ly/zBE3BhV>.

(٣) الموقع الرسمي للدورة السابعة والعشرين من مؤتمر الأطراف لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية حول تغير المناخ لعام ٢٠٢٢، انظر: <https://cop27.eg>، COP27.

ثانيًا: تغيير السلوك وتحقيق أهداف التنمية المستدامة

أصبحت التأثيرات البشرية في البيئة كبيرة جدًا إلى الحد الذي دفع بمجموعة من الباحثين إلى طرح أننا قد دخلنا حقبة جيولوجية جديدة تسمى الأنثروبوسين (Anthropocene)^(٤) يكون فيها الإنسان هو المحرك الغالب في عمليات نظام الأرض^(٥). فالسلوك البشري غير المستدام هو السبب وراء حدوث تغير المناخ، وفقدان التنوع البيولوجي وتدهور النظام البيئي، وتحمُّض المحيطات. ودفع هذا الوعي الزائد بمدى التأثير البشري في الكوكب كله بالجهود الدولية إلى الحد من التدهور البيئي وتعزيز التنمية المستدامة.

وعلى الرغم من النفع العائد من تطبيق بعض الحلول التنظيمية والتقنية للتصدي لبعض حالات التلوث البيئي، على سبيل المثال، فلا تزال معدلات الدمار البيئي في زيادة بسبب السلوك الاستهلاكي غير المستدام للإنسان. ومن ثم جاء تأكيد أهمية تضمين البعد البشري للتغيير، خاصة التغيير السلوكي، نحو تحقيق التنمية المستدامة. وهو ما أكدته برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (٢٠١٦)، بأن «تحقيق أهداف التنمية المستدامة يتطلب الفهم الدقيق لطريقة اتخاذ الأفراد للقرارات وتنفيذها، وطريقة تفكيرهم بعضهم حول بعض، والطريقة التي يبنون بها معتقداتهم ومواقفهم»^(٦).

ويمكن لجهود الحد من السلوكيات غير المستدامة أن تخفض معدل تسارع التدهور البيئي، ومن ثم الإسهام في تحقيق أهداف التنمية المستدامة. وعلى سبيل المثال، أدى تبني بعض السلوكيات المستدامة إلى خفض الانبعاثات المباشرة الصادرة عن الأسر المعيشية

(٤) لم توافق بعد اللجنة الدولية للطبقات الجيولوجية ولا الاتحاد الدولي للعلوم الجيولوجية (IUGS) رسميًا على هذا المصطلح باعتباره أحد التقسيمات الفرعية المعترف بها للوقت الجيولوجي.

(٥) Kathleen Klaniecki, Katharina Wuropulos and Caroline Persson Hager, "Behaviour Change for Sustainable Development", in *Encyclopedia of Sustainability in Higher Education*, edited by Walter Leal Filho (n.p.: Springer Cham, 2019): 1-10, online e-book, SpringerLink (database), Springer, https://link.springer.com/content/pdf/10.1007/978-3-319-63951-2_161-1.pdf?pdf=inline%20link.

(٦) United Nations Development Programme (UNDP), *Behavioural Insights at the United Nations: Achieving Agenda 2030* ([New York, NY: UNDP, 2016]), online e-book, www.undp.org/sites/g/files/zskgke326/files/publications/Behavioral%20Insights%20at%20the%20UN.pdf.

بالولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ٢٠٪^(٧). ووفقًا لتقرير منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ومنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا عام ٢٠١٧^(٨)، يزداد دمج الحكومات والمنظمات العامة لعلم السلوك في صنع سياساتها. وتخصّص المملكة المتحدة مؤسسة بعينها لتطبيقات العلوم السلوكية، بالإضافة إلى مبادرات أخرى مشابهة في الدنمارك وأستراليا والأمم المتحدة الأمريكية وسنغافورة وكندا^(٩). وفي كاليفورنيا استخدمت وكالة حماية البيئة الأمريكية أدوات التغيير السلوكي لتخفيف الآثار الصحية المصاحبة لاستهلاك أنواع الأسماك الملوثة. وفي السنوات الأخيرة بدأت الدول النامية تتبنى مثل هذه التطبيقات لرفع كفاءة وفاعلية مشروعاتها للتنمية المستدامة^(١٠).

ثالثًا: عادات القراءة والسلوك المؤيد للبيئة لدى الشباب

يمكن تعريف السلوك المؤيد للبيئة «Pro-environmental Behavior» بأنه «مجموعة العادات التي إما تقدّم النفع للبيئة وإما تضر بها بأقل قدر ممكن»^(١١). وتزداد أهمية تنمية هذا السلوك بين فئة الشباب على وجه التحديد؛ لأنهم الأصول المستقبلية للأمم، وهم خير من يمثل مفهوم التغيير السلوكي. وتتنوع العوامل المحددة لتكوين السلوك المؤيد للبيئة،

Klaniecki, Wuropulos and Hager, "Behaviour Change for Sustainable Development": 2. (٧)

Organisation for Economic Co-operation and Development (OECD), *Behavioural Insights and Public Policy: Lessons from around the World* (Paris: OECD, 2017), online e-book, https://read.oecd-ilibrary.org/governance/behavioural-insights-and-public-policy_9789264270480-en#page21.

United Nations Environment Programme (UNEP), *Consuming Differently, Consuming Sustainably: Behavioural Insights for Policymaking* ([Nairobi]: UNEP, 2017), online e-book, <https://cutt.ly/IBE5wWm>.

World Development Report 2015: Mind, Society and Behaviour, World Bank Report 92863 ([Washington, DC]: World Bank Group, 2015), <http://documents.worldbank.org/curated/en/645741468339541646/pdf/928630WDR0978100Box385358B00PUBLIC0.pdf>.

Noah Linder, et al., "Pro-environmental Habits: An Underexplored Research Agenda in Sustainability Science", *Ambio* 51 (2022): 546–556, online e-article, SpringerLink (database), Springer, <https://link.springer.com/article/10.1007/s13280-021-01619-6>.

وهذا ما يدفع نحو تنوع آخر في الدراسات التي تهدف إلى شرح المتغيرات ذات الصلة أو التنبؤ بها.

وتشير إحدى الدراسات التي عنيت ببحث مدى أهمية السلوك المؤيد البيئي لدى الشباب، خاصةً طلاب المرحلة الثانوية وطلاب الجامعات^(١٢)، إلى تعدد العوامل التي تسهم في بناء السلوك المؤيد للبيئة لدى الشباب، والتي تتجلى في تصرفاتهم الفردية. كما أن تضمين الشباب في الأنشطة البيئية يساعد على تحفيز مشاعرهم الإيجابية، مما يجعل من السلوك المؤيد للبيئة سلوكًا مستدامًا، ومن ثم سينعكس على مستقبل البيئة.

ومن بين العوامل المحددة لتكوين السلوك المؤيد للبيئة «عادات القراءة» لدى الشباب، كما جاء في دراسة حديثة نُشرت عام ٢٠٢٢ في «مجلة العلوم التربوية: النظرية والتطبيق»^(١٣). فقد أكدت الدراسة الأهمية الحاسمة لعادات القراءة في تشكيل وبناء السلوك المؤيد للبيئة لدى الشباب في ماليزيا. فمهارات التفكير النقدي، التي تسهم في تنميتها العادات الجيدة للقراءة، لها دور مهم في قدرة الشباب على تقديم حلول مبتكرة للقضايا البيئية، ومن ثم الإسهام في تعزيز الرفاهية والدفع نحو سلوكيات أكثر مراعاة للبيئة ولاستدامتها. كذلك تُعد القراءة مصدرًا مهمًا لتعريف الشباب مسؤوليتهم الاجتماعية تجاه البيئة، على نحو يجعلهم أكثر وعيًا بالبيئة من خلال مشاركتهم بسلوكيات مؤيدة للبيئة، ويبشر بإمكانية تحقيق هدف الحفاظ على البيئة.

Tyas Palupi and Dian R. Sawitri, "The Importance of Pro-Environmental Behavior in Adolescent", *E3S Web of Conferences* 31 (2018): 1–4, online e-article, https://www.e3s-conferences.org/articles/e3sconf/pdf/2018/06/e3sconf_icenis2018_09031.pdf.

R. Rasiah, et al., "The Sociology of Reading among Malaysian Youths: Building a Culture of Reading to Enhance Environmental Awareness and Develop Pro-Environmental Behavior", *Educational Sciences: Theory and Practice* 22, no. 1 (May 2022): 116–128, online e-article, <https://cutt.ly/xM8pC6t>.

وحسب ما ورد في دراسة أخرى صادرة عن جامعة بني سويف عام ٢٠٢١^(١٤)، تتعدد مصادر تشكيل الوعي وتتداخل بعضها مع بعض، ومن بينها التثقيف الذاتي «الذي يعتبر أساسياً لتشكيل الوعي، حيث يعني أن يهتم كل إنسان بتثقيف نفسه وتحصيل أكبر قدر من المعرفة. والإنسان يلجأ إلى تثقيف ذاته عند شعوره برغبة حقيقية في تشكيل وعي مستنير قائم على الحقائق المقنعة، ومن ثم يجب العمل على نشر ثقافة القراءة الحرة والتثقيف الذاتي».

رابعاً: المشروع الوطني للقراءة

هناك اهتمام زائد عالمياً بتحسين مهارات القراءة باعتبارها أساس الوعي النقدي، والتعلُّم الحر، والحياة المدنية. ومن بين المبادرات التي ظهرت في الآونة الأخيرة للتشجيع على القراءة في مصر «المشروع الوطني للقراءة»^(١٥) الذي أطلقته وزارة التربية والتعليم والفني، بالاشتراك مع مؤسسة البحث العلمي الإماراتية. وهو أول مشروع ثقافي تنافسي لتشجيع الطلاب على القراءة باختلاف مراحلهم الدراسية في مصر. وترتكز المبادرة على أربع ركائز؛ هي: «التنافس المعرفي» وتستهدف طلبة المدارس والمعاهد في مصر، و«المعلم المثقف» وتستهدف معلمي الطلبة من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الثالث الثانوي، و«المؤسسة التنويرية» وتستهدف المدارس والجامعات والمكتبات ومؤسسات العمل المدني والمؤسسات الإعلامية، وأخيراً «المدونة الماسية» وتستهدف طلبة الجامعات؛ أما بالنسبة إلى المعايير التي يُقيّم المشاركون من خلالها، فهي كما يلي:

طبيعة الكتاب، ويشمل هذا المعيار: التنوع، والحداثة، والتلخيص، ومعلومات الكتاب، واختيار الكتاب للقراءة.

(١٤) صلاح محمد جمعة أبو زيد، «فاعلية برنامج مقترح قائم على القضايا الاجتماعية لتنمية الوعي بهذه القضايا وأبعاد المسؤولية الاجتماعية وبقاء أثر التعلم لدى طلاب شعبة الدراسات الاجتماعية بكلية التربية»، مجلة كلية التربية: جامعة بني سويف ١٨، العدد ١٠٤، ج. ٢ (إبريل ٢٠٢١): ٩٩-١٠١، مقالة إلكترونية متاحة عبر الإنترنت، https://journals.ekb.eg/article_181435_5b674b95e673238400971a1cd532b180.pdf.

(١٥) الموقع الرسمي للمشروع الوطني للقراءة، انظر: المشروع الوطني للقراءة، <https://cutt.ly/nBE4pd0>.

الفهم والاستيعاب: ويشمل الفكر الأساسية، والفكرة العامة للكتاب، والدروس المستفادة، واستنتاج المعلومات، واستنتاج عرض المؤلف، وتحديد اتجاهات المؤلف، ونقد الكتاب.

العرض والمناقشة: ويشمل هذا المعيار فصاحة اللغة وشخصية المتحدث، وطريقة عرض الكتاب وتدفق الأفكار واستخدام المفاهيم.

ووفقاً لإحدى الدراسات التي اهتمت بدراسة مسابقة «المشروع الوطني للقراءة» ومشاركة طلاب وطالبات جامعة الأزهر فيها^(١٦)، يتضح من خلال الاستبيان الذي أجرته الدراسة وشمل مجموعة من المشاركين في المسابقة، أن نسبة الطلاب الذين كانت المسابقة سبباً في تشجيعهم على القراءة ١٣,٦٪، أمام نسبة ٨٦,٣٪ من الطلاب الذين كانوا معتادين القراءة من قبل المسابقة، في حين بلغت نسبة الاستفادة من المسابقة ٩٥,٤٪. وتنوعت الاستفادة بين زيادة المفردات اللغوية واكتساب فكر جديدة وتحصيل معلومات عامة، وغيرها. ومن بين المجالات الموضوعية للكتب المقروءة بالمسابقة، احتلت العلوم التطبيقية المرتبة الأخيرة، بنسبة ٥,١٪، مقارنةً بالموضوعات الأخرى من بينها: الأدب، والفلسفة، والديانات، وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية، والعلوم البحتة، والفنون، والتاريخ، والجغرافيا. وتتميز المسابقة بالتحفيز المادي الضخم الذي يعمل بدوره على تشجيع القراءة وإنشاء تنافس بين الطلاب، وإكساب الطلاب مهارات كثيرة.

(١٦) آية الله فايز عبد الملك، «مبادرة المشروع الوطني للقراءة: جامعة الأزهر نموذجاً»، مجلة قطاع الدراسات الإنسانية ٢٩، العدد ١ (يونيو ٢٠٢٢): ١٤٠٥-١٤٦٦، مقالة إلكترونية متاحة عبر الإنترنت، https://jsh.journals.ekb.eg/article_242605_db165bec0b02fc424b22f96b4700db6d.pdf.

خاتمة

إنه بالنظر إلى تلك النتائج ومحاولة ربطها بموضوع الدراسة، وهو العلاقة بين عادات القراءة والوعي البيئي، يمكن تعظيم الاستفادة من «المشروع الوطني للقراءة» من خلال بحث كيفية تضمين رفع الوعي البيئي، والتركيز فيه كمقصد فرعي منبثق من أحد الأهداف الرئيسية للمشروع وهو «التأسيس إلى العناية بكتب الناشئة عبر إثراء المكتبات ورفع جودة المحتوى والإخراج». هذا بالإضافة إلى بحث سبل إمكان التطوير الدائم للمشروع ورفع نسبة الطلاب الذين تشجعهم المسابقة على القراءة من خلال دمج نظريات ومناهج التغيير السلوكي ضمن تطبيقات المشروع. خاصة أن فئة الشباب التي تستهدفها إحدى ركائز المشروع، هي أهم عناصر رأس المال البشري بدولة شابة كمصر، ولا مفر من ضرورة إدراكهم لأبعاد وتبعات المسؤولية الاجتماعية لقضية تغير المناخ محلياً وعالمياً، والتزامهم بها. وإذا لم يتم ذلك فإنه ينعكس سلباً على المجتمع.

كذلك يمكن الاستعانة بنظريات ومناهج التغيير السلوكي لدراسة العادات والقيم المجتمعية والمحددات الأخرى التي تسهم في تكوين عادات القراءة لدى الشباب في مراحل مبكرة أيضاً من خلال هذا المشروع؛ لأن سلوكيات الفرد في الماضي مؤثر قوي إلى التنبؤ بسلوكياته في المستقبل. ولا يمكن أن نضع مستقبل الوطن في أيدي قادة مستقبلين، مترددين بشأن القراءة، أو لا يضعون المعرفة ضمن أولويات اهتماماتهم. ومن ناحية أخرى، يلزم بذل جهود متضافرة بين الحكومة والمؤسسات التعليمية والأسرة من أجل تشجيع عادات القراءة على المدى الطويل وتهيئة البيئة المناسبة لها، سواء من خلال «المشروع الوطني للقراءة» الحالي، أو من خلال مبادرات أخرى تجمع الأطراف المعنية بالمشاركة كافة نحو تحقيق هذا الهدف.

ونختتم الدراسة بحقيقة مهمة لا بد من الانتباه لها عند الإعداد لبرامج تغيير سلوك الفرد وتشكيل الوعي؛ ألا وهي أن أغلب برامج التوعية القائمة على سرد المعلومات حول قضية معينة، مثل الندوات والمحاضرات التوعوية والحملات الإعلامية، ما هي إلا وسيلة من بين

وسائل عديدة أخرى، تتكامل معها لتحقيق أثر حقيقي وفاعل ينعكس على معدلات تحقيق التنمية المستدامة. ومن ثم يُوصى بإجراء دراسات مستقبلية حول الفروق بينها وكيفية تعظيم الاستفادة منها. وإنه من أجل ضمان مستقبل أفضل وبيئة أكثر استدامة، فنحن نحتاج إلى فهم أفضل لدوافع السلوكيات السابقة غير المستدامة ودراساتها دراسة متعمقة، مع توجيه مزيد من التركيز إلى تضمين دراسة السلوك المؤيد للبيئة ضمن أجندة بحوث علم الاستدامة.

الشباب المصري والثقافات الرقمية في مجتمع المنصة

الدكتور وليد رشاد زكي

أستاذ مساعد علم الاجتماع،
المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية

أدى مجتمع المنصة دوره البارز في التأثير في الشباب المصري، وأبرز ثقافة جديدة وهي الثقافة الرقمية التي تعد مجموعة من النقلات النوعية على المستوى الثقافي. وتنطلق الرؤية الحالية من النظر إلى الثقافة الرقمية في علاقاتها بالشباب المصري من اعتبارين؛ يتمثل الأول في النظر إلى الثقافة من منظور تعددي، إذ تجاوز النظرة القديمة التي ترى أن الثقافة الرقمية نمط واحد، فهذا المنظور قاصر ولا يسمح بفهم وتحليل عميق للثقافة الرقمية؛ أما الاعتبار الثاني فيرتبط بصعوبة الفصل بين السياقات الواقعية التي يتعامل على خلفياتها الشباب المصري، والثقافة الرقمية التي تنطلق في مجتمع المنصة.

تعبر الثقافة الرقمية التعددية عن مجموعة الثقافات التي تنطلق داخل مجتمع المنصة، وتنطلق الدراسة الراهنة بمعرفة ثقافة الشباب المصري في مجتمع المنصة، وهو المصطلح الأكثر حداثة في سلسلة تطور المجتمع الافتراضي. وقد نتج عن مجتمع المنصات نمطان من التغيير؛ يتمثل الأول في التغيير التكنولوجي عبر الآليات المختلفة التي برزت من خلال هذا المجتمع، وخصوصاً مع مجتمع الجيل الخامس من الإنترنت، وقد أثر هذا التغيير التكنولوجي في الشباب المصري وقضاياهم وتفاعلاتهم مع المجتمع سواء مجتمع المنصات أو المجتمع الواقعي. وأما النمط الثاني من التغيير فيتمثل في التغيير الاجتماعي الذي ترتب بطبيعة الحال على التغيير التكنولوجي، إذ أكدت دراسات عديدة أن التغيير التكنولوجي قاد إلى تغيير

في أبنية المجتمعات، وتغير اجتماعي واسع المدى، نال الشباب حظًا أوفر من هذا التغير وفقًا لمنظور الواقع والدراسات التي اهتمت بفهم ثقافة الشباب وتحولاتها في ضوء الثقافة الرقمية.

تهدف الدراسة الحالية إلى فهم العلاقة بين ثلاثية الشباب المصري ومجتمع المنصات والثقافة الرقمية التعددية، وذلك بالاستناد إلى مجموعة من التساؤلات مفادها: ما طبيعة مجتمع المنصة؟ وما طبيعة الثقافة الرقمية التعددية؟ وما تداعيات الثقافة الرقمية التعددية على الشباب المصري؟ وما أبرز ملامح الشباب المصري الثقافية في مجتمع المنصة؟

انقسمت الدراسة الراهنة إلى ثلاثة عناصر؛ جاء الأول بعنوان: مجتمع المنصة وفهم الثقافة الرقمية التعددية للشباب المصري، وعُنون العنصر الثاني بـ: سمات وملامح الشاب المصري في مجتمع المنصة، في حين جاء العنصر الثالث بعنوان: المواطنون الرقميون الجدد في مجتمع المنصة والتمكين الجديد.

أولاً: مجتمع المنصة وفهم الثقافة الرقمية التعددية للشباب المصري

مر المجتمع الرقمي بمجموعة من المراحل المتلاحقة، أثرت بدورها في جميع الفئات الاجتماعية وخصوصاً الشباب. وقد تطورت خلال المراحل المتعاقبة المفاهيم المرتبطة به، فتحول المجتمع الافتراضي إلى المجتمع الشبكي ثم إلى المجتمع الرقمي، والآن يميل العديد من الباحثين إلى مصطلح «مجتمع المنصة». وهذا المجتمع بطبيعة الحال أفرز ثقافته التي ألفت بظلالها على المتفاعلين داخل ساحته، وينصب التركيز هنا على فئة الشباب وخصوصاً الشباب المصري. وفي هذا السياق يعرض الطرح لمفهوم مجتمع المنصة، ومفهوم الثقافة الرقمية كونهما نقطة الانطلاق في الدراسة الراهنة.

مجتمع المنصة والشباب المصري... محاولة للفهم: يصعب الحديث عن الشباب المصري دون الحديث عن مجتمع المنصة Platform Society فهو المجتمع الذي يقضي فيه الشباب معظم وقتهم؛ يتعاطون المحتويات الجدية والمضامين الهزلية. وقد حاول فان ديجك

José van Dijck عبر كتابه «مجتمع المنصة» أن يوضح ذلك الدور، إذ أشار قائلاً: «إن المنصات عبر الإنترنت أصبحت عملياً أكثر فاعلية من المؤسسات العامة في تنظيم وهيكلة الحياة العامة والخاصة. فالعديد من السياسات العامة تراعي العمليات اليومية في مجتمع المنصة». ويمكن تعريف مجتمع المنصة بأنه «حياة اجتماعية يتم فيها تعديل التدفقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل زائد بواسطة نظام بيئي معولم للمنصات عبر الإنترنت، وهو لا يعد نمطاً جديداً من الفضاء الافتراضي، وفي نفس الوقت ليس بعيداً عن العالم الواقعي، فهو يقع في قلب الحياة اليومية، ويمتد تأثيره على جميع أشكال الممارسات اليومية»^(١).

يتفاعل داخل مجتمع المنصة العديد من الأفراد على مستوى العالم، والتركيز في هذا السياق في الشباب المصري. فقد أكدت إحدى الدراسات التي أجريت على مجتمع المنصة أنها أفرزت نمطاً جديداً من الجماهير سُمي بالجمهور الرقمي Digital publics، وقد صنّفهم تيمو بيبس Timon Beyes إلى جمهور مشاهدين، ومشاركين، ومندمجين. وهنا يمكن تقسيم فئات الشباب المصري الذي يتعامل مع مجتمع المنصة إلى مشاهد يتعرف ولا يتفاعل، ومشارك يتفاعل، ومندمج مستغرق بشكل كبير في تفاعلات مجتمع المنصة^(٢).

وتشير الإحصاءات إلى تنامي استخدام الإنترنت في مصر والآليات المتعددة الاتصالية التي بداخله، فقد أشار تقرير وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات إلى زيادة استخدام الإنترنت في مصر خلال أغسطس ٢٠٢٢ بواقع ٧١,٧٨ مليون مستخدم بزيادة ١١,٣٢ مليون مستخدم عن العام الماضي^(٣). وتتعدد التطبيقات التي يستخدمها الشباب المصري على

(١) Batuhan Keskin, "Van Dijk, Poell, and de Wall, The Platform Society: Public Values in a Connective World (2018)", *Markets, Globalization & Development Review* 3, no. 3 (2018): 1-8.

(٢) Timon Beyes, "Staying with the Secret: The Public Sphere in Platform Society", *Theory, Culture & Society* 39, no. 4, *A New Structural Transformation of the Public Sphere?* (2022): 111-127.

(٣) مصر. وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات. تقرير موجز عن مؤشرات الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات [مصر]: وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، (٢٠٢٢).

https://mcit.gov.eg/Upcont/Documents/swf/ICT_Indicators_in_Brief_September_2022_11102022_Arabic/index.html.

الإنترنت وعلى رأسها مواقع التواصل الاجتماعي، فقد احتل «فيسبوك» المركز الأول عام ٢٠٢١ بواقع ٣٩ مليون مستخدم، و«إنستجرام» بلغ نحو ١١ مليون مستخدم، و«سناب شات» بلغ نحو ٣,٣ ملايين مستخدم، وبلغ «لينكد إن» نحو ٣,٥ ملايين مستخدم؛ أما «التيك توك» فمن التطبيقات سريعة النمو في مصر، وهو ما أكدته تقرير الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات في إبريل ٢٠٢٠ حول مؤشرات استخدام الاتصالات خلال التقريرين الأول والثاني من عام ٢٠٢٠. وقد أشار التقرير الأول عن الاتحاد الدولي للاتصالات إلى زيادة في استخدام «التيك توك» بنسبة ١٩٤٪ في الأسبوع الأول من إبريل ٢٠٢١ مقارنة بالأسبوع الثاني من مارس، وأشار التقرير الثاني إلى زيادة بنسبة ٢٤٪ من الأسبوع الثالث من شهر مايو مقارنة بالأسبوع الثالث من إبريل^(٤).

فهم الثقافات الرقمية التعددية للشباب في مجتمع المنصة: احتلت الثقافة مكانة متميزة عند الحديث عن الإنترنت وتفاعلاته، فقد استطاعت التكنولوجيا وخصوصاً المرتبطة بالاتصالات الرقمية تشكيل ثقافة شبابية تتشكل داخل الشبكات وداخل ما يمكن تسميته بمجتمع المعرفة^(٥). وقد تعددت التعريفات حول ثقافة الإنترنت، وتعددت معها المسميات، فقد أطلق عليها البعض الثقافة الإلكترونية، والثقافة المعلوماتية، والثقافة السيبرانية، والثقافة الرقمية، وغيرها من المصطلحات، وقد عرفها «مظفر الرزو» بأنها «ثقافة رمزية تجمع بين ما هو تقني مرتبط بتكنولوجيا المعلومات وبين ما هو اجتماعي وثقافي، فقد أصبحت الأبدان المقيمة في الواقع الطبيعي مرتبطة بالنفوس والثقافات والقيم المتشكلة في البيئة الرقمية»^(٦). فثمة علاقة تربط بين ما هو ثقافي وما هو اجتماعي، فالثقافة ما هي إلا نتاج لتفاعلات المجتمع. وقد ربطت العديد من الكتابات بين الثقافة الرقمية وثقافة ما بعد الحداثة، فقد تراكم المنتج الثقافي بدرجة صار فيها مكتفياً بذاته دون الواقع الذي من

(٤) تم في ذلك الرجوع إلى: «إبريل ٢٠٢٠»، الجهاز القومي لتنظيم الاتصالات،

www.tra.gov.eg/ar/quality-reports/2020-4Statcounter, https://statcounter.com/

(٥) Nicholas Nisbett and Aditi Bhonagiri, "Internet Cultures", in *Critical Themes in Indian Sociology*, edited by Sanjay Srivastava, Yasmeen Arif and Janaki Abraham (New Delhi, India: SAGE, 2019): 127-137.

(٦) حسن مظفر الرزو، الفضاء المعلوماتي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧): ٢٤٠-٢٤١.

المفترض أن يعبر عنه، بمعنى أن الثقافة قد أعادت إنتاج نفسها بنفسها، واختلط داخلها الواقعي بالرقمي^(٧).

كيف نفهم الثقافة الرقمية للشباب المصري في مجتمع المنصة؟ للإجابة عن السؤال يمكن تبني الطرح الذي قدمه جرانت بلومار Grant Bollmer، إذ أشار إلى أن مصطلح الثقافة الرقمية بالشكل الحالي لا يستخدم بدقة، فالعديد ينظر إليه على أنه يتشكل من الممارسات التي يقوم بها الأفراد عبر وسائل التواصل الاجتماعي، لكن هذه المفاهيم تُحمّل الثقافة ما لا تطيقه. فالحقيقة لا توجد ثقافة رقمية واحدة في العالم الرقمي، وهو المدخل المهم الذي يعتمد عليه التحليل الراهن في فهم ثقافة الشباب المصري في ظل العالم الرقمي، فلا يمكن أن ننظر إلى الثقافة الرقمية من منظور أنها ثقافة واحدة، وخصوصاً عندما نحاول فهم التحولات التي طرأت على ثقافة الشباب المصري. فقد أشار بلومار إلى أنه توجد ثقافة رقمية واحدة، ولكنها ثقافات تعددية، وسك مصطلح الثقافات الرقمية التعددية The plural digital cultures^(٨).

تقود النظرة الواحدة إلى الثقافة الرقمية إلى أحادية تمتص كل أجيال الشباب في العالم في إطارها، وهو أمر يصعب معه فهم التأثيرات الثقافية في الشباب المصري في مجتمع المنصة. وفي سبيل فهم الثقافات الرقمية التعددية نحن نحتاج إلى ثلاثية؛ أولها: يجب أن نعترف أن هناك العديد من الأحداث والسرديات التي تحدث في الواقع تلقي بظلالها على الثقافات الرقمية، فليس هناك انفصال بين الواقع والسياق الرقمي، وثانيها: يجب أن نعترف أن الوسائط الرقمية تعد في حد ذاتها بنية تحتية توفر الأسس التي يعمل بها الشباب ويعيشون على أساسها، بمعنى لا يمكن عزلها عن فهم الثقافة الواقعية للشباب بوجه خاص، وثالثها:

(٧) كامل شباع، «في ثقافة ما بعد الحداثة وسياساتها»، في الفكر العربي بين العولمة والحداثة وما بعد الحداثة، سلسلة قضايا فكرية ٢٩ (القاهرة: قضايا فكرية، ١٩٩٩): ٣١٥-٣٢٥.

(٨) Grant Bollmer, "Defining Digital Cultures: What are Digital Cultures?", in *Theorizing Digital Cultures* (Los Angeles, CA: Sage, 2018): 19-36.

يجب أن نضع في اعتبارنا أن هناك حوارًا مستمرًا بين الشباب ووسائل الاتصالات ومواقع التواصل^(٩).

ثانيًا: سمات وملامح الشباب المصري في مجتمع المنصة

يصعب الحديث عن ملامح الشباب المصري بعيدًا عن تفاعلات الإنترنت والمجتمع الرقمي، فقد أكدت دراسات عديدة أن للإنترنت تأثيرات أكبر من أن نتخيلها، فالتكنولوجيا أصبحت منسوجة في روتين الحياة اليومية، وأدت إلى تراجع الحدود بين الحياة العامة والخاصة، وأبرزت شكلًا جديدًا من أشكال الذات تسمى بالذات الشبكية Network Self^(١٠). وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أبرز سمات الجيل الرقمي في ضوء الثقافة الرقمية، من خلال محورين يتعلق الأول بسمات وخصائص الأجيال الشبابية، والثاني عبر خصائص الثقافات الرقمية التي تشكل وعيهم.

يشير علماء الديموجرافيا في تصنيفهم للأجيال إلى جيل الشباب في الفئة (Z) على أنهم مواليد منتصف التسعينيات إلى نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة، ويطلق عليهم «المواطنون الرقميون». يُعرف هذا الجيل أيضًا باسم جيل جوجلز، وهو الجيل الذي وُلد ولديه إمكانية التعامل مع التكنولوجيا، ولهم سمات مشتركة أبرزها الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي والميل إلى قضاء وقت طويل في استخدام الأجهزة التكنولوجية. يتشابك هذا الجيل مع مجموعة من الأحداث العالمية، مثل الأزمة العالمية الاقتصادية، والحرب على الإرهاب، والنزاعات، وتنامي مجتمع المخاطر العالمي وغيرها من الأحداث التي تجعل لهذا الجيل مجموعة من التقاطعات المشتركة التي تميّزه^(١١). وتحدد أهم سمات جيل جوجلز في التالي:

(٩) المرجع السابق.

(١٠) Barney Warf, ed. *The SAGE Encyclopedia of the Internet Introduction* (Thousand Oaks, CA: SAGE, 2018): 13-14.

(١١) أيمن السيد عبد الوهاب، «مأزق الجيل Z المصري»، مجلة أحوال مصرية ١٩، العدد ٧٨ (٢٠٢٠): ٣-١.

١- البراعة في استخدام التكنولوجيا

يتسم هذا الجيل بحضور مهد التطور التكنولوجي المرتبط بالإنترنت، حيث انعكس ذلك على شخصيتهم. فقد دخل الإنترنت مصر عام ١٩٩٤ أي تزامناً مع ميلاد هذا الجيل، فقد رُبي على التكنولوجيا، وشهد تنامي كل تطبيقاتها ابتداءً من فيسبوك عام ٢٠٠٤ إلى يوتيوب وتيك توك وواتساب.

٢- التواصل الرقمي أكثر من التواصل الواقعي

تعد هذه السمة من سمات جيل جوجلز ليس على مستوى الشباب المصري فحسب ولكن على الصعيد العالمي، فالتنامي الكبير في آليات ووسائل التواصل الرقمي جعلت هذا الجيل أكثر ارتباطاً بها بالشكل الذي يمكن معه القول إن التفاعلات الرقمية أكثر مساحة واتساعاً من التفاعلات على الصعيد الواقعي، وهذا ما جعل دراسات عديدة تطلق عليهم المواطنين الرقميين^(١٢).

٣- الأجساد والأمراض ارتبطت بالصحة الرقمية

لم تقتصر سمات هذا الجيل على السمات الثقافية فحسب، بل ثمة خصائص جسدية لهذا الجيل، فإن التأثيرات الفسيولوجية للتكنولوجيا الرقمية امتدت إلى أجسادهم فترى أمراضهم تكاد تكون متشابهة، فهم جيل يعاني السمنة؛ لأنه اكتفى بالحركات والألعاب الرقمية، واكتفى أن يتحرك في هذا العالم الرقمي بواسطة الشاشات، كما أن أمراض النظر من الأمراض الشائعة في جيل جوجلز نظراً للاعتماد على الشاشات، وكذلك أمراض فقرات الظهر والرقبة. والقصد هنا أن ثمة خصائصاً وخصائص في الأمراض تجمع بين أرباب جيل الإنترنت والتكنولوجيا من الشباب، ليس في مصر فقط ولكن على مستوى العالم^(١٣).

(١٢) دون تابسكوت، جيل الإنترنت: كيف يغير جيل الإنترنت عالمنا، ترجمة حسام بيومي (القاهرة: كلمات عربية، ٢٠١٢): ١٢١.

(١٣) وليد رشاد، المواطنة والتمكين في العصر الرقمي (القاهرة: دار روابط، ٢٠١٩): ١٠٠-١١٠.

ويمثل الجسد بُعدًا مهمًا في هذا الجيل إذ إن الشباب يهتمون بشكل الجسد، ويقدمون أنفسهم للآخرين في أفضل صورة، ويبدو ذلك من صور حساباتهم عبر وسائل التواصل وتطبيقات الإنترنت المختلفة.

٤- نظرة جديدة نحو الذات

يتسم هذا الجيل بنظرة حول ذاته، تتجاوز هذه النظرة رباعية الجسد والغرائز والعقل والروح، إذ ترى الذات مشروعًا افتراضيًا تسبر أغوار علاقة الإنسان بالآلة بعد أن امتزج الإنسان مع آله الجديدة في توليفة تكنو- حيوية يجعل من الإنسان ذاته عنصرًا في منظومة أشمل، وهي بذلك تكاد تفقده السيطرة على آله. وهذا ما تطور الآن في العالم الرقمي، إذ تنامي خطاب الما بعد وأصبح العالم الواقعي مرتبطًا بتفاعلات العالم الرقمي، وتكمن المشكلة عند محاولة فهم ثقافة الشباب بعيدًا عن هذه الرؤية^(١٤).

٥- الاعتماد على السرد الرقمي

يعتمد هذا الجيل على الحكايات والسرديات الرقمية، وهناك دراسة حديثة لتيمو بيبس Timon Beyes تشير إلى أن مجتمع المنصة والمجال العام الرقمي الذي يتفاعل فيه الشباب يقوم على السرد والحكاوي الرقمية التي تختفي معها الأسرار إلى حد كبير، فالعالم الرقمي فاضح للأسرار، وخصوصًا المشاهير والمؤثرين على مواقع التواصل الاجتماعي^(١٥). ويمكن القول أيضًا إن السرديات الرقمية لها تحيزات، فإما أن تكون منحازة إلى الوقت وإما منحازة إلى المكان^(١٦).

(١٤) نبيل علي، تحديات عصر المعلومات، مكتبة الأسرة، سلسلة الأعمال العلمية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣): ٢٦٢.

(١٥) Beyes, "Staying with the Secret": 111.

(١٦) وليد رشاد، «السرديات الرقمية، والحكاكين الجدد»، أصوات أون لاين، ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٠، <https://rb.gy/x9z4au>.

٦- انتشار العنف الرمزي

يتضح في جيل الشباب من الجيل جوجلز أنه يتجه إلى العنف وخصوصًا العنف الرمزي، فأحيانًا يتجه إلى العنف من أجل التباهي وإثبات الذات عبر الفضاء السيبراني واستعراض القوة (متأثر بالألعاب الإلكترونية)، مثل أعمال السطو على الحسابات الأخرى من أجل الاستعراض^(١٧). كما أن العنف في هذا الجيل، وإن لم يكن كثيرًا على مستوى الواقع من حيث الكم، فهو أوسع، وخير شاهد على ذلك الجرائم الأخيرة التي على الرغم من فرديتها فإن لها تأثيرًا مثل حادثة الإسماعيلية والمنصورة.

٧- الاستهلاك الثقافي والاقتصادي

يتسم هذا الجيل بالاستهلاك على أكثر من مستوى، فتراه يتجه إلى الاستهلاك الثقافي والمتمثل في التقليد ويبدو ذلك في أشكالهم وملابسهم وقصات الشعر والاهتمام بالشكل، كما أنه جيل يتجه إلى الماركات العالمية في الطعام والشراب والملبس، حتى في الباقات وماركات الموبايل، والأجهزة اللوحية، واشتراقات القنوات والمواقع. فالاستهلاك الثقافي هو السمة الأساسية التي تميز هذا الجيل، وليس فقط الاستهلاك الثقافي بل الاقتصادي أيضًا.

٨- ثقافتهم ما بعدية

من أهم ملامح هذه الجيل الثقافية أن ثقافتهم تعتمد على الما بعديات، فهي ثقافة تخرج من أسر المعرفة الحقيقية وتتجاوز الحدود لتتكامل فيها فروع المعرفة التي كانت فيما مضى متباعدة ومتباينة. هذه المعرفة الجديدة لا تكتفي بالتعامل مع المقنن والمنطقي والرياضي والإمبريقي، بل أيضًا تتعامل مع المعرفة السردية والوعي الجماعي والخبرات الواقعية ومع العوامل الافتراضية Virtual Worlds^(١٨) أيضًا. ثقافة الجيل ليست متشكلة من المؤسسات والأفراد والأدوار والوكالات كما ورد في نموذج ماكس فيبر، ولا بنية فقط تعمل على دعم

(١٧) تابسكوت، جيل الإنترنت: ١٢١.

(١٨) علي، تحديات عصر المعلومات: ٢٦٢.

قيم أصحاب السلطة كما ورد في نموذج ماركس، ولا مقومًا في ثلاثية العلم والدين والثقافة كما طرحها نموذج دوركايم، بل تضع الثقافة في قلب هذه المنظومة بوصفها تيارًا يسري في جميع أركانها وقطاعاتها.

٩- التغيير لدى جيل جوجلز هو الثابت

أهم سمات هذا الجيل أنه يمتص التغيير بسهولة وسرعة، يؤمن هذا الفكر الجديد بأن التغيير هو الثابت الوحيد باستثناء ثوابت العقيدة. فلا يستسلم هذا الفكر أمام الحتميات ولأيديولوجيات فهو فكر يثير التنوع والتجدد دومًا، فكر لا يختزل الواقع ولكن يقبله كما هو بتعقيداته واحتمالاته يؤمن بلانهاية إشكاليات العقل ولانهاية الجدل واستحالة اكتمالها وكماها. فهم يتعاملون مع عالم رقمي يتسم بالآلية والدينامية وسرعة اتخاذ القرار ويتعاملون مع فضاء رقمي لا يحتكر الثقافة، بل يعمل على نشرها بأسلوب يختلف عن إدارة المصانع والمتاجر وعن بيروقراطية المكاتب^(١٩).

ثالثًا: المواطنون الرقميون الجدد في مجتمع المنصة والتمكين الجديد

أفرز المجتمع الرقمي شكلاً جديدًا من أشكال المواطنة، وهي المواطنة الرقمية، وارتبطت بمفاهيم أخرى منها المواطن الرقمي، وقد منح المجتمع الرقمي هذا المواطنَ الفرص كما وضع أمامه المخاطر. ويمكن في هذا السياق الحديث عن أبرز ملامح المواطن الرقمي من فئة الشباب عبر السياق التالي:

أنماط الشباب في مجتمع المنصة: كيف يتعامل الشباب على مجتمع المنصة؟ للإجابة عن السؤال لا يمكننا أن نضع الشباب المصري كله في سلة واحدة، وإذا استخدمنا مصطلح «المواطن الرقمي» على الشباب في هذا المجتمع فإننا يمكن أن نقسمهم إلى فئات، ويعتمد

(١٩) المرجع السابق.

التصنيف هنا على ما قدمه الأستاذ الدكتور أحمد زايد عن توماس جانوسكي، إذ صنف المواطن خمسة تصنيفات يمكن سحبها على الشباب في مجتمع المنصة^(٢٠)، يتحدد النمط الأول في المواطن التضامني Incorporated Citizen: وهو ذلك المواطن الذي يرى نفسه جزءاً من النخبة ولا يفضل التبادلات الاجتماعية مع المعارضة، ويتمثل النمط الثاني في المواطن النشط Active Citizen: وهو الذي يشارك في التفاعلات العامة، ويعمل هذا المواطن من أجل الآخرين، ويتحدد الثالث في المواطن المختلف Differential Citizen: وهو ذلك النمط من المواطنين الذين يقبلون السلطة كما هي، ويتجنبون المشاركات السياسية بكل صورها؛ أما الرابع فهو المواطن الهامشي Marginal Citizen: وهو المواطن المعزول الذي لا يمتلك سوى موارد قليلة، هم الفقراء على الصعيد الواقعي؛ أما على الصعيد الرقمي، فهم الأفراد الذين لا يملكون المعرفة، وليس لديهم أرصدة من أشكال رأس المال الثقافي والمعرفي الذي يسمح لهم بالتفاعل داخل ساحة المجتمع الرقمي، ويتحدد الصنف الخامس في المواطن القدري Opportunistic Citizen: وهو ذلك النمط من المواطنين الذين تكون لديهم مواقف معارضة، ولكن يعتمدون على رؤية قدرية، ولا يذهب إلى الارتباط مع أي أحد.

التمكين الجديد للشباب المصري في مجتمع المنصة: نجاح مجتمع المنصات في تمكين أصوات لم يكن ليسمع عنها أحد في عدم وجودها، وعبر عن ذلك ميرسكين Debra L. Merskin في كتابه (٢٠٢٠) «وسائل الإعلام والمجتمع»، إذ أشار إلى أن التطبيقات الرقمية الجيدة تؤدي دورها في تمكين أصوات لم تكن لتصل إلى المجتمع لم يسمع لها من قبل^(٢١). ويشهد مجتمع المنصات على تحولات في القوة بالمعنى الاجتماعي، إذ نجح في نوع جديد من التمكين والقوة التي يمكن وصفها بالقوة الرمزية الجديدة نتيجة الشهرة

(٢٠) أحمد زايد، «المواطنة والمسؤولية الاجتماعية: مدخل نظري»، في المؤتمر السنوي الحادي عشر: المسؤولية الاجتماعية والمواطنة، ١٦-١٩ مايو ٢٠٠٩، مج. ١ (القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠١٠): ١٧-٤٤.

(٢١) Debra L. Merskin, ed., *The Sage International Encyclopedia of Mass Media and Society* (Los Angeles, CA: SAGE, 2020): 1-5.

والأرباح التي حققها العديد من الأصوات^(٢٢). والمتأمل لواقع مجتمع المنصات يدرك أن الأصوات العالية معظمها للخارجيين عن المألوف، فنجد كثيرًا من مشاهير هذا العالم الرقمي لم يكن لهم أن يحققوا شهرتهم دون تطبيقات المنصات الرقمية، مثل مطربي المهرجانات، وصانعي المحتوى على «يوتيوب»، «وتيك توك»... وغيرهم الكثير، وهناك أيضًا العديد من مشاهير الواقع يتحركون على مرجعية مجتمع المنصات لتحقيق مزيد من الشهرة أو مزيد من الأرباح. ويمكن القول إن هذا المجتمع ليس فيه قواعد محددة للتمكين، لذا يمكن أن نطلق عليه مجتمع التمكين الغامض أو التمكين المنفلت، فقد ارتفعت فيه أصوات وظهرت على سطح المجتمعات دون أن يكون لديها القدرات أو المواهب التي تسمح لها بالشهرة، ولكن الخروج عن المألوف دفع إلى تشكل هذا النمط من التمكين.

يتطلب الإنصاف أن نشير إلى أن ثمة تمكينًا في مجتمع المنصات للأصوات التي تعلق في الواقع، فهناك العديد من المشاهير وأصحاب المواهب لديهم حضور على هذا المجتمع، والمراد قوله في هذا الصدد ليس كل مجتمع المنصات غنًا، ولكن فيه الثمين أيضًا، فهناك العديد من القنوات على «يوتيوب» لها محتوى ومضمون هادف وناجح، وهناك العديد من الحسابات على «تيك توك» أيضًا لها أهدافها ومضامينها الراقية^(٢٣).

يرتبط تمكين المؤثرين من الشباب بنمط من الجمهور يسمى بالجمهور العاطفي Affective publics، إذ يستمد مشاهير مجتمع المنصة مثل مشاهير «تيك توك»، و«يوتيوب» قوتهم من عدد المتابعين، الذي أفرز لديهم شكلاً جديدًا من أشكال القوة تسمى بالقوة الرمزية؛ وهو مصطلح يصف قوة الجمهور المتابع بعدد دعمهم ومشاركاتهم، فكلما زاد عدد المتابعين زادت القوة الرمزية في مجتمع المنصات. ومما لا شك فيه أن هذه القوة مصدرها الجمهور، ويمكن الحديث في هذا السبيل عن مصطلح «الجمهور العاطفي» وهو الجمهور الذي يمزج الحقائق بالرأي، ويحكم بمشاعره على رسائل مجتمع المنصات سواء كانت

(٢٢) Zongyi Zhang "Infrastructuralization of Tik Tok: Transformation, Power Relationships, and Platformization of Video Entertainment in China", *Media, Culture & Society* 43, no. 2 (2021): 219-236.

(٢٣) وليد رشاد، «التمكين الرقمي المنفلت: ماذا فعل التريند بالمجتمع؟»، رؤى مصرية، العدد ٩٠ (مايو ٢٠٢٢): ٩.

فيديوهات أو منشورات أو صورًا. ومن أهم سمات الجمهور العاطفي أنه يتحرك بثقافة الحشد، إذ يجتمع على حدث أو قناة أو شخص أو موقف داخل مجتمع المنصات، وتجمعه يولد مزيدًا من القوة لصاحب الحساب^(٢٤). ويتعلق نجاح العديد من مشاهير العالم الرقمي بالجمهور العاطفي، بل يستمدون منهم نجاحاتهم، فهو الداعم للمنشورات التي قد لا يكون مضمونها إيجابيًا في أحيان كثيرة، فهذا الجمهور هو الذي يحقق الشهرة والمال لأصحاب القنوات وحسابات مجتمع المنصة.

خاتمة

قدمت الدراسة رؤية حول الشباب المصري في عالم الرقمنة داخل مجتمع المنصة، ويمكن القول إن الترابط بين فئة الشباب على مستوى العالم أصبح أكثر في ظل الثقافات الرقمية التعددية، وهو الأمر الذي يمثل ميزة للشباب المصري في الاستفادة من الثقافات المتوافرة عبر السياقات الرقمية، وعثرة وتحديًا في ذات الوقت من أجل الحفاظ على الثقافة الواقعية والتراث المصري الأصيل، فتأرجح الشباب بين العالمية والمحلية والتقنيات الاتصالية أفرز نخبًا شبابية مختلفة عن النخب التقليدية. فالنخب الشبكية تتحرك على مرجعية القوة الرمزية من المشاركات والإعجابات والمضامين التافهة التي تخرج غالبًا عن العرف والتقاليد المألوفة، ولكن هذه الأصوات المرتفعة في السياق الرقمي أصبحت قدوة لدى الشباب وأصابت الثقافة الواقعية بالوهن الأخلاقي من وجهة نظر عالم الكبار، وزادت الفجوة بين الأجيال. والحل يكمن في ضرورة تكاتف الجهود والعمل على استراتيجية رقمية عربية تتكاتف فيها الجهود؛ من أجل نمط جديد من التربية الرقمية للأجيال القادمة من الأطفال والمراهقين والشباب للاستفادة من مقدرات العالم الرقمي وتجنب مخاطره.

Samantha Hautea, *et al.*, "Showing They Care (Or Don't): Affective Publics and Ambivalent Climate Activism (٢٤) on TikTok", *Social Media + Society* 7, no. 2 (April–June 2021): 1-14.



الثقافة الاقتصادية في المجتمع المصري بين الثوابت والتغيير

الدكتورة جيهان عبد السلام عباس

مدرس الاقتصاد بكلية الدراسات الإفريقية العليا بجامعة القاهرة،
ومحاضر بأكاديمية ناصر العسكرية العليا، ومدرّب معتمد بالأكاديمية الوطنية للتدريب

تعد القيم المجتمعية أحد أهم المتغيرات التي تؤثر بشكل كبير في الثقافة الاقتصادية السائدة. فلكون علم الاقتصاد علمًا اجتماعيًا بالأساس، أصبح ما يمر به من تطورات يعتمد بشكل رئيسي على ما يمر به الأفراد أنفسهم من ظروف متغيرة. ويسهم الوعي المجتمعي المرتفع بشأن ما تمر به الدول، وما تشهده سياساتها الاقتصادية من تحديث وتجديد، في تسريع وتيرة تطبيق تلك السياسات وإنجازها للأهداف المطلوبة، وعلى العكس في ظل ثوابت مجتمعية لا تتغير ولا تتبدل، يصعب على الدولة تنفيذ الكثير من الإصلاحات. من هذا المنطلق، تهدف هذه الدراسة إلى تحليل أهم ما يميز الثقافة الاقتصادية في المجتمع المصري، في ظل ثوابت لم تتغير بشكل كبير مع الزمن مثل ثقافة الاستهلاك، واللجوء نحو الاقتصاد الخفي، وأيضًا في ضوء متغيرات إيجابية في تلك الثقافة تتجه نحو التطوير والوعي بشأنها مثل ثقافة التحول الرقمي، والاقتصاد الأخضر الصديق للبيئة.

أولًا: مفهوم الثقافة الاقتصادية

يقصد بالثقافة بوجه عام «اجتماع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان لتحكم سلوكه بهدف الارتقاء بهويته وذاته ونمط حياته، والإعلاء من شأن وجوده في الحياة»؛ ولذلك فإن للتنمية الثقافية مفهومًا واسعًا، يدخل في نطاق التنمية الشاملة.

ويقصد بـ«الثقافة الاقتصادية»: «تلك الممارسات والسلوكيات التي يتبعها أفراد المجتمع لتؤثر سلباً أو إيجاباً في المردود الاقتصادي الوطني، وذلك من زوايا متعددة يدخل معظمها في نطاق الممارسات الاقتصادية المختلفة»^(١).

وتتعلق الثقافة بعلم الاقتصاد في جوانب عديدة، فالفرد ومن ثم المجتمعات هي أساس تطور اقتصادات الدول، وإذا كان مواطنو الدولة يتحلون بثقافة اقتصادية رشيدة، فمن شأن ذلك أن يؤثر في الأداء الاقتصادي ويزيد فرص التقدم والنمو، وعلى العكس تماماً في حالة ضعف الثقافة الاقتصادية لدى المواطنين. وهذا الأمر يتعلق بأنماط معيشة واستهلاك وإنتاج الأفراد داخل مجتمعاتهم، والتي تعد الحاكم الرئيسي لتوجهات الدولة الاقتصادية ومخططاتها التنموية^(٢)، وبدأت واضحة في كتاب «ثروة الأمم» لأدم سميث عام ١٧٧٦، وأوجز العديد من أفكاره عن نظرية المشاعر الأخلاقية، والثقافة والسياق الأخلاقي الذي تتحقق فيه الأنشطة الاقتصادية، وحلل الدوافع المشجعة على التعاون العفوي بين الأفراد في المجتمع وكيفية نشر ثقافة التضامن الاجتماعي.

وظهر مصطلح «الاقتصاد الثقافي» في تسعينيات القرن العشرين، لكن التطورات السريعة لوسائل التواصل الاجتماعي وثقافة السوق الجماهيري غيرت تعريف «الثقافة» نفسها، إذ أصبح يشير الاقتصاد الثقافي إلى الذوق السائد، كذلك أنماط وتوجهات الاستهلاك، وإدارة الأعمال، والإبداع والابتكار، فضلاً عن فهم وإدراك المشكلات الاقتصادية الراهنة وسبل حلها، ليرتبط بذلك علم الاقتصاد بعلم الأنثروبولوجيا المجتمعية ارتباطاً وثيقاً^(٣).

(١) John Mohr, *Measuring Culture*, edited by Jennifer C. Lena, et al. (New York: Columbia University Press, 2020): 35–36.

(٢) علي حسين عبيد، «الثقافة الاقتصادية والاقتصاد الثقافي»، شبكة النبا المعلوماتية، ٢٠١٥، <https://annabaa.org/arabic/annabaaarticles/1087>

(٣) Hannah Chew, “Defining the Cultural Economy”, <https://www.artshelp.com/defining-the-cultural-economy/> ARTSHELP, 2020.

ثانياً: أنماط الثقافة الاقتصادية والسلوكيات المتأصلة في المجتمع المصري

١- ثقافة الاستهلاك في مصر

ويقصد بها نمط السلوك الاستهلاكي في كل ما ينفقه المواطن، كما يشير إلى الاستهلاك الموجه لتحقيق أسلوب حياة متميز يرتبط بسمات تشير إلى الثقافة السائدة^(٤). ويتسم المجتمع المصري بانتشار شديد لثقافة الاستهلاك الزائد، والتي تعود إلى تلك العادات والقيم المختلفة التي دخلت مصر في نهاية فترة الثمانينيات مع اتباع برامج الانفتاح الاقتصادي، وما تلاها من سياسات اقتصادية غيرت بشكل كبير أنماط استهلاك الشعب المصري وتفضيلاته، خاصة أن تلك الفترة التي تزامنت مع هجرة العديد من المصريين للسفر بدول الخليج، وعادت تلك الفئات إلى مجتمعها بثقافة استهلاكية أدت إلى اختلال في توازن المجتمع المصري؛ مما انعكس على هيكل المجتمع المصري وأوضاعه الاجتماعية والطبقية. ففي الوقت الذي حققت فئة اجتماعية ثروات هائلة، حقق البعض الآخر المزيد من الفقر وتدني مستويات المعيشة خاصة مع تراجع دور الدولة نسبياً في جانب الرعاية الاجتماعية، كذلك سياسات خفض الدعم وتخفيف الأسعار^(٥).

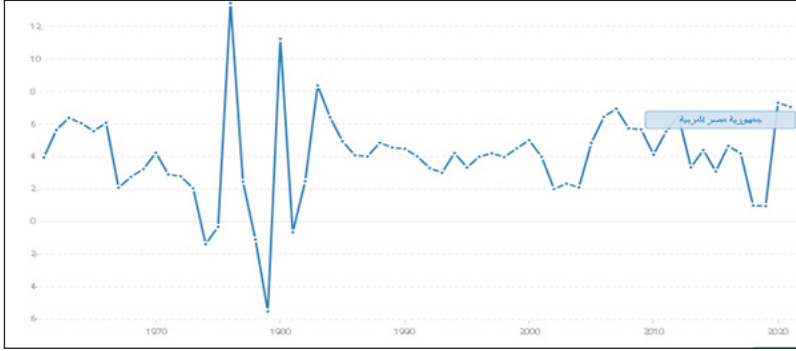
وارتفع حجم الإنفاق الاستهلاكي للمجتمع المصري من ٩,٦٨ مليارات جنيه عام ١٩٩٠ إلى ٨,٨٩٩ مليارات جنيه عام ٢٠٠٠، ثم إلى ٦٤,٥ تريليون جنيه عام ٢٠٢١^(٦). وقد بلغ حجم إجمالي استهلاك المصريين في عام ٢٠٢٠ نحو ٦٧٢ مليار جنيه في الأكل والشرب فقط، أي بمعدل ٥٠ مليار جنيه شهرياً، ويرتفع حجم الاستهلاك في شهر رمضان فقط من ٨٠ إلى ١٢٠ مليار جنيه تقريباً.

(٤) ياسر عيد أحمد شحاتة، «الإصلاح الاقتصادي وثقافة الاستهلاك في المجتمع المصري»، مجلة كلية الآداب، العدد ١١ (يناير ٢٠١٨): ٣٨٥-٣٨٦.

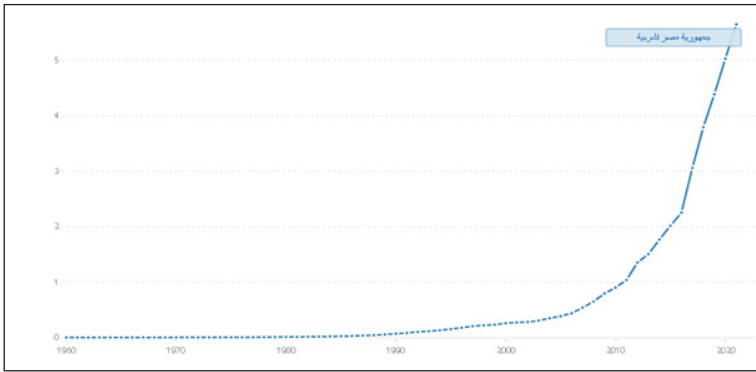
(٥) المرجع السابق: ٣٨٤.

(٦) «النفقات النهائية لاستهلاك الأسر المعيشية (% النمو السنوي)»، البنك الدولي،

<https://data.albankaldawli.org/indicator/NE.CON.PRVT.KD.ZG>



شكل رقم (١) تطور النفقات النهائية لاستهلاك الأسر المعيشية (% النمو السنوي)^(٧)



شكل رقم (٢) تطور قيمة النفقات النهائية لاستهلاك الأسر المعيشية
(بالأسعار الجارية للعملة المحلية)^(٨)

وفي أوقات الأزمات الاقتصادية التي عادة ما توجي بتراجع الاستهلاك، كان المجتمع المصري على العكس تمامًا، إذ صمد الاستهلاك الخاص خلال فترة جائحة كورونا، فمصر

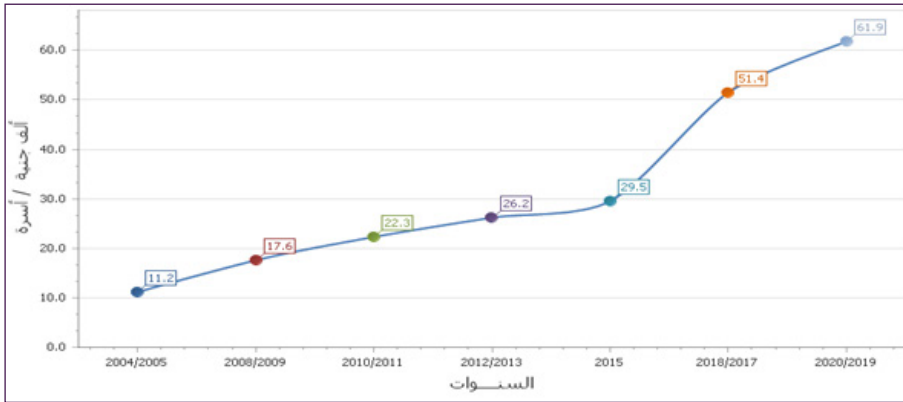
(٧) المرجع السابق.

(٨) «النفقات النهائية لاستهلاك الأسر المعيشية (بالأسعار الجارية للعملة المحلية)»، البنك الدولي،

<https://data.albankaldawli.org/indicator/NE.CON.PRVT.CN> .

هي الدولة الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التي زادت معدل استهلاكها خلال الجائحة، بحسب وكالة فيتش سوليوشنز Fitch Solutions، ليسهم الأداء القوي للقطاع الاستهلاكي في مصر إلى حد كبير في تنفيذ السياسات الحكومية لدعم الشركات والأفراد المعرضين للخطر^(٩).

وفي دراسة للجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، أشار فيها أنه على الرغم من ضعف إمكانات عديد من المصريين، استمر الاستهلاك قائماً حتى في حالة عدم وجود دخل مناسب، فقرابة نصف الأسر تقترض من الغير، وقرابة ١٧٪ من الأسر تعتمد على مساعدات اجتماعية، في حين حصل قرابة ٥,٤٪ من الأسر على منحة العمالة غير المنتظمة، وذلك في حالة عدم كفاية الدخل.



شكل رقم (٣) قيمة خط الفقر المدقع للفرد في السنة^(١٠)

هذا في الوقت الذي ارتفع فيه أعداد من يقعون تحت خط الفقر المدقع سنويًا، إذ يشير الشكل رقم (٣) إلى أعداد من لا يستطيعون الحصول على الدخل للإنفاق للحصول على

Ministry of Planning and Economic Development, *The Annual Economic Bulletin FY2020/21* (Cairo: Ministry of Planning and Economic Development, 2022): 16–17.

(١٠) «قيمة خط الفقر المدقع للفرد في السنة»، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، https://www.capmas.gov.eg/Pages/IndicatorsPage.aspx?page_id=6154&ind_id=1124

الغذاء فقط^(١١). ويضاف إلى ذلك توجهات مشابهة عند اندلاع الحرب الروسية الأوكرانية، إذ سادت حالة الخوف بين أفراد المجتمع المصري وبدأ التوجه نحو تأمين الاحتياجات المعيشية خاصةً من الدقيق ومنتجات الحبوب رغم ارتفاع أسعارها. وفي تقرير لوكالة فيتش سوليوشنز Fitch Solutions، توقعوا فيه أن نمو الإنفاق الأسري في مصر سيتباطأ في عام ٢٠٢٢، بنسبة تقل بنحو ٧,٠٪ مقارنة بعام ٢٠٢١، و٧,٣٪ بعام ٢٠٢٠، وأن التباطؤ سيكون مدفوعاً بشكل أساسي بآثار أساسية غير مواتية بعد عامين من نمو الإنفاق الاستهلاكي فوق الاتجاه، ولكن الواقع المجتمعي غير تلك التوقعات إلى حد كبير^(١٢)؛ الأمر الذي غير التوقعات الدولية للأنماط الاستهلاكية في مصر. ووفق التقرير الصادر عن فيتش سوليوشنز Fitch Solutions في بداية عام ٢٠٢٢، توقعت أن يرتفع الإنفاق على الغذاء خلال الفترة (٢٠٢٢-٢٠٢٥) بمعدل نمو سنوي يبلغ ١٠,٣٪؛ الأمر الذي سيؤدي إلى ارتفاع الإنفاق بالقيمة الاسمية من ٧٧٩,٥ مليار جنيه مصري (ما يعادل ٤٧,٨ مليار دولار أمريكي) عام ٢٠٢٢ ليصل إلى ١٠٢٧,٩ مليار جنيه مصري (بما يعادل ٦٠,٧ مليار دولار أمريكي) عام ٢٠٢٥^(١٣).

٢- ثقافة التوجه نحو اقتصاد الظل (الاقتصاد غير الرسمي)

يشكل الاقتصاد الخفي أو غير الرسمي جزءاً رئيسياً من اقتصاد أي دولة نامية على وجه الخصوص، ويتشابك بشكل كبير مع أنشطة القطاع الرسمي بشبكة من العلاقات والتبادل والتوزيع، ويصعب التقدير الدقيق لحجم القطاع غير الرسمي لعدم وجوده تحت المظلة القانونية للدولة، فضلاً عن كونه لا يخضع للضمان والحماية الاجتماعية. ويشمل هذا القطاع الوحدات الإنتاجية التي تزاوّل نشاطاً اقتصادياً دون ترخيص من الجهات الرسمية

(١١) المرجع السابق.

Egypt 2022 Consumer Outlook: Growth Decelerates As Unfavourable Base Effects Kick In", *Fitch Solutions*, (١٢) 30 November 2021, <https://www.fitchsolutions.com/consumer-retail/egypt-2022-consumer-outlook-growth-decelerates-unfavourable-base-effects-kick-30-11-2021>.

(١٣) هايدي راشد، «بالأرقام.. كم ينفق المصريون على الطعام والشراب سنوياً؟» سكاى نيوز العربية، shorturl.at/fzCLN.

ولا تحمل أي شكل قانوني، ويبلغ عدد المنشآت العاملة في القطاع غير الرسمي نحو مليوني منشأة بنسبة ٥٣٪ من إجمالي المنشآت العاملة في مصر لعام ٢٠٢٠، ويعمل به ما يصل إلى ٥٠٪ من إجمالي العمالة المصرية، ويسهم بنحو ٤٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي^(١٤). ونحو ٧٢٪ من هذه الأعمال تم إنشاؤها بعد عام ٢٠١٠، أي بعد الأحداث السياسية التي مرت بها مصر وأثرت في ظروف المجتمع المصري، وتصل نسبة المشتغلين بتلك المنشآت إلى ٤٤٪ من إجمالي المشتغلين في المجتمع المصري لعام ٢٠٢٠، ومعظمهم من الفقراء^(١٥).

وهناك العديد من العوامل التي أدت إلى انتشار القطاع غير الرسمي في المجتمع المصري، مثل تعقد إجراءات الاقتصاد الرسمي (الدخول والخروج من النشاط)، وزيادة أعبائه (الأعباء الضريبية، التأمينات الاجتماعية)، فضلاً عن شروط المشروعات الصحية والبيئية. وتكمن خطورة هذا القطاع رغم مزاياه من إنشاء مصدر دخل للعديد من أفراد المجتمع، في صنع حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي والمجتمعي، يصعب معه وضع أو رسم سياسات محددة من جانب متخذي القرار في المجتمع، فضلاً عن صعوبة تنظيم الأوضاع بداخله بما يتلاءم مع احتياجات المجتمع، بالإضافة إلى الظروف السيئة التي يعمل فيها هؤلاء، ولا يتمتعون بتأمينات اجتماعية أو تأمين صحي.

ويؤدي أيضاً كبر حجم القطاع غير الرسمي إلى فقدان الدولة جزءاً كبيراً من الإيرادات الضريبية، كما أنه يجرم الاقتصاد من الإسهام في زيادة معدلات النمو الاقتصادي من خلال دمج القيمة المضافة المنتجة من الأنشطة غير الرسمية إلى الحسابات القومية. وانتشاره خارج نطاق الرقابة الحكومية يؤدي إلى عدم توافر المعلومات الدقيقة وقواعد البيانات الشاملة اللازمة لإعداد الإحصاءات المهمة، مثل: معدلات التضخم والبطالة ونسبة

(١٤) أميرة شوقي، «ما هي أهم جهود الدولة المصرية لدمج القطاع غير الرسمي؟» مركز سينرجز للدراسات الدولية والاستراتيجية Synerjies، ٢٩ نوفمبر ٢٠٢١، <https://synerjies.com>.

(١٥) عبد الفتاح الجبالي، «القطاع غير الرسمي وسوق العمل»، مجلس الوزراء. مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، ٢٩ سبتمبر ٢٠٢١، <https://www.idsc.gov.eg/DocumentLibrary/View/6048>.

الإعالة، والتي تؤثر في إعداد الخطط التنموية سواء السنوية أو طويلة المدى، ومن أهمها مبادرة تطوير قرى الريف المصري وحياة كريمة^(١٦).

ثالثاً: تحولات إيجابية متغيرة في الثقافة الاقتصادية المجتمعية في مصر

١- ثقافة الإسراع نحو التحول الرقمي

يؤدي العنصر البشري دوراً مهماً في عملية الإنتاج، ونظراً لتلك الأهمية أخذت الدول تطور من هذا العنصر لبناء تنافسية حقيقية، عن طريق تداخل التكنولوجيا، ثم أصبح لشبكات الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات أيضاً دور فعال وأساسي، ومع هذا التطوير أصبح هناك ضرورة إلى الانتقال إلى ما سُمي بـ«الرقمنة»^(١٧).

وقد عمدت مصر إلى وضع خطة شاملة لنشر الوعي المجتمعي بأهمية التحول الرقمي وتحقيق طفرات على صعيد البنية التحتية الرقمية وتوطين التكنولوجيا في مختلف المحافظات المصرية، إذ أطلق كلٌّ من وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي مشروع التحول الرقمي من أجل التنمية المستدامة في يناير ٢٠٠٢، بما يفيد في جميع مجالات التنمية، لا سيما سبل العيش والتمكين الاجتماعي والتعليم والتوعية والبيئة. هذا بالإضافة إلى تمكين الفئات المحرومة من النساء والأشخاص ذوي الإعاقة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي من خلال تقديم برامج بناء القدرات وتعزيز المشاريع متناهية الصغر والصغيرة والمتوسطة. ويسهم مشروع «تفعيل دور نوادي تكنولوجيا المعلومات في التنمية المجتمعية» في سد الفجوة الرقمية من خلال إتاحة التكنولوجيا لجميع طبقات المجتمع في جميع المناطق الجغرافية. وفي إطار استراتيجيات الشمول الرقمي للحكومة

(١٦) شوقي، «ما هي أهم جهود الدولة المصرية لدمج القطاع غير الرسمي؟».

(١٧) نورهان نهادي موسى، «التكاملية في التحول الرقمي»، مجلس الوزراء. مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، ٣٠ سبتمبر

٢٠٢١، <https://www.idsc.gov.eg/DocumentLibrary/View/6507>

المصرية التي تنتهجها الحكومة المصرية، تم تنفيذ مشروع «وظائف ومهارات للأشخاص ذوي الإعاقة باستخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات» بالشراكة مع منظمة العمل الدولية؛ لتعزيز حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة. كما يعمل الصندوق المصري لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات على تنفيذ العديد من المبادرات التي تهدف إلى تحقيق تنمية مجتمعية مستدامة تقوم على الاستفادة من دور التكنولوجيا وإسهامها في تمكين المناطق الريفية، تتضمن عدة ركائز وهي تمكين المرأة، وزيادة الأعمال، وحلول التعليم والصحة باستخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات^(١٨).

ومما لا شك فيه أن التحول الرقمي يساعد على إحداث قدر من التحول الاجتماعي في علاقات البشر بعضهم ببعض وعلاقاتهم بالمؤسسات المختلفة، فهناك تفاعل بين السياق الاجتماعي والتطور التقني، أو بعبارة أخرى تسير التحولات الاجتماعية في الاتجاه السليم من خلال التحول الرقمي. وقد سارعت جائحة كورونا هذا التحول المجتمعي نحو الرقمنة وانتشار استخدامها بين الفئات المختلفة بحكم الظروف السائدة حينها، وهو ما يوضحه الجدول رقم (١)، إذ إن العمل والتعليم ووقت الفراغ والتواصل الاجتماعي والعديد من الأنشطة الأخرى تتم في الفضاء الرقمي، ولم تعد تفيد فئة مجتمعية بعينها وخاصة فئة الشباب، بل أصبحت شاملة للعديد من الفئات العمرية كذلك كبار السن، إذ أصبح الكثير منهم على دراية بالتكنولوجيا؛ ومن ثم أصبحت عاملاً فارقاً وأساسياً في إيجاد بيئات ومجتمعات رقمية شاملة وسهلة لجميع الأعمار. فعلى سبيل المثال تمكّن تطبيقات الصحة الإلكترونية كبار السن من إدارة صحتهم؛ فالتقنية تشكل أهمية زائدة للاندماج الاجتماعي، الأمر الذي يمكن كبار السن من الحفاظ على اتصال وثيق بالأسرة والأصدقاء والتغلب على العزلة الاجتماعية والوحدة خلال جائحة كورونا. وتم إثبات أن التقنية تقدم

(١٨) «الشمول الرقمي، (التحول الرقمي من أجل التنمية المستدامة)»، وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات،

https://mcit.gov.eg/ar/Digital_Citizenship/Digital_Transformation_for_Sustainable_Development_in_Egypt

فرصًا لا حصر لها للتعلّم والتفاعل من خلال التطبيقات المبتكرة مثل الواقع المعزز، والواقع الافتراضي، والذكاء الاصطناعي^(١٩).

جدول رقم (١)

أهم بيانات التحول الرقمي في المجتمع المصري ما بين عامي ٢٠١٩ و٢٠٢٠^(٢٠)

المؤشر	القيمة أو النسبة
نسبة المصريين الذين يستخدمون جوجل أسبوعيًا للاطلاع على الأخبار	٦٨٪
نسبة الأطفال الذين يستخدمون جوجل للتعلّم أثناء كورونا	٥٥٪
عدد مستخدمي بوابة مصر الرقمية	٥ ملايين فرد
عدد الطلبات المقدمة إلى المنصة الرقمية	١٩ مليون طلب
عدد الاستشارات الطبية عبر تطبيق الصحة الرقمية	١٤٠٠٠ استشارة
عدد المتعلمين المصريين عبر المنصات الرقمية	٨٣,٢ ألف طالب جامعي
عدد العاملين بالزراعة الذين تم تدريبهم على استخدام التطبيقات الرقمية	٨١٠٠ بالجمعيات الزراعية ٢٥٠٠ بوزارة الزراعة
نسبة الزيادة في استخدام المدفوعات الرقمية عبر الإنترنت	٦٩٠٪

(١٩) روكسانا ويمر- إليسكو، «يمكن للتقنيات الرقمية أن تساعد كبار السن على عيش حياة صحية ومنتجة»، الأمم المتحدة، ١٧ مايو ٢٠٢٢، <https://www.un.org/ar/178478>.

(٢٠) من إعداد الباحث استنادًا إلى المرجع التالي، انظر: مجلس الوزراء المصري. مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، جهود على طريق التنمية: الرقمنة في مصر (القاهرة: مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، ٢٠٢٢): ٤-٢٨، كتاب إلكتروني متاح عبر الإنترنت،

https://www.idsc.gov.eg/Upload/DocumentLibrary/Attachment_A/7176/20%مصر20%في20%الرقمنة20%pdf.

٢- ثقافة التحول نحو الاقتصاد الأخضر

يعد التحول نحو الاقتصاد الأخضر من التوجهات الاقتصادية الحديثة نسبيًا من حيث الظهور، إذ لم يكن هذا الاتجاه الاقتصادي محل تركيز واهتمام خلال العقود السابقة. وبدأ يظهر بوضوح مع وضع رؤية مصر للتنمية المستدامة ٢٠٣٠ بأبعادها الثلاثة (الاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية)، وبدأت الحكومة المصرية تنفذ خطوات كبيرة في مجال الطاقة المتجددة والمدن الخضراء، ووسائل النقل المستدام، وغيرها من الخطوات نحو اقتصاد أخضر منخفض الانبعاثات الكربونية وصادق للبيئة، وهو ما أهلها لاستضافة قمة المناخ COP27 في نوفمبر ٢٠٢٢.

ولكن يبقى الوعي المجتمعي والثقافة الاقتصادية السائدة بشأن هذا التحول الأخضر، هو المتغير الرئيسي الذي من شأنه إنجاح تلك التجربة أو لا. فأهداف التوعية البيئية تكاد تشترك جميعها في نقاط محددة وهي الارتقاء بالبيئة وتنميتها وحماية مواردها، وتنمية المعارف والمهارات الضرورية وخاصة لدى الشباب، وكذلك لدى غيرهم من الفئات المجتمعية؛ لتمكينهم من فهم وتقدير وتدبير العلاقات المتبادلة بين البشر وبيئتهم المادية والبيولوجية والاجتماعية والثقافية^(٢١). فالتوعية والتثقيف البيئي يعدان من أكثر الأمور إلحاحًا في مسار الإصلاح والتنمية المستدامة في مصر، ولا سبيل لتحقيقهما بدون نشر الوعي البيئي؛ نظرًا للارتباط المتلازم بين النهوض بالاقتصاد والنهوض بالوعي البيئي. فالاستهلاك الأمثل للموارد ورأس المال مع مراعاة حقوق البيئة يعمل على تحقيق رخاء اقتصادي بيئي بما يدفع لصالح تثمين جهود التحول الأخضر في مصر^(٢٢).

(٢١) محمود محمود إبراهيم، تأثير بعض إصدارات جهاز شئون البيئة على تنمية الوعي البيئي لدى عينة من المواطنين في محافظة القاهرة (رسالة ماجستير، جامعة عين شمس. معهد الدراسات والبحوث البيئية. قسم التربية والثقافة، ١٩٩٧: ٨٠-٨١).

(٢٢) سوزان يوسف محمد بغدادي، «التحديات المعاصرة الداعية للنهوض بالوعي البيئي: دراسة تشخيصية»، مجلة كلية التربية، العدد ١٤ (يونيو ٢٠١٣): ٩١١-٩١٣.

ومن هنا نصح محتاجين إلى نحو الأمية البيئية، أي تلك الظاهرة الاجتماعية التي تتضح في سلوك الأفراد العدائي نحو بيئتهم، وتؤثر تلك الظاهرة في الاستخدامات البيئية غير المناسبة والتي تسهم في إخلال التوازن البيئي، ويصب في النهاية لغير صالح عملية التنمية الاقتصادية^(٢٣). ومن هنا ظهرت مبادرات مجتمعية تعمل على تعزيز الوعي البيئي أهمها مبادرة «اتحضر للأخضر»، وتأتي في إطار الاستراتيجية القومية للتنمية المستدامة «مصر ٢٠٣٠»، وتستهدف تغيير السلوكيات ونشر الوعي البيئي وحث المواطنين على المشاركة في الحفاظ على البيئة؛ حفاظًا على حقوق الأجيال القادمة وتعظيم فرص التنمية الاقتصادية والاجتماعية^(٢٤).

وقد أُدرج البعد البيئي في المشروعات التنموية والتوسع في دعم المشروعات الصغيرة والمتوسطة في مجال الاقتصاد الأخضر، فجاءت المبادرة الوطنية للمشروعات الخضراء الذكية، لوضع خريطة على مستوى المحافظات للمشروعات الخضراء والذكية وربطها بجهات التمويل وجذب الاستثمارات اللازمة لها، من الداخل والخارج، فضلًا عن نشر الوعي المجتمعي حول تحديات التغير المناخي وإدماج جميع أطراف المجتمع في إيجاد حلول لتحديات التغير المناخي والبيئي^(٢٥).

خاتمة

تؤثر السلوكيات والقيم المجتمعية بشكل كبير في تحديد ملامح الدول الاقتصادية، ورسم سياساتها التنموية، وعلى الرغم من أن المجتمعات تتطور بشكل كبير، فإن قدرة الدول على تغيير بعض سمات الواقع المجتمعي المتأصل قد يكون أمرًا صعبًا. وفي المجتمع المصري،

(٢٣) عبد الرؤوف الضبع، إشكاليات التعليم وقضايا التنمية (الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٣): ٧٦.

(٢٤) «مبادرة اتحضر للأخضر»، خريطة مشروعات مصر، خريطة مرقمة متاحة عبر الإنترنت، <https://egy-map.com/initiative/>

(٢٥) «المبادرة الوطنية للمشروعات الخضراء الذكية»، البوابة الإلكترونية، محافظة الوادي الجديد، ٢٩ أغسطس ٢٠٢٢، <http://newvalley.gov.eg/Services/Pages/ServiceDetails.aspx?ServiceCode=292>

يلاحظ أن هناك ثقافة استهلاكية مستمرة حتى في أوقات الأزمات، والتوجه نحو الترشيد يكاد يكون صعباً حتى بالنسبة إلى الفئات الأقل دخلاً، بل تتغير فقط نوعية السلع محل البيع والشراء ولكن معظمها يدور في نطاق السلع الاستهلاكية. ومع الانفتاح الاقتصادي على دول العالم، توسع نطاق الاستهلاك ليشمل في جزء كبير منه السلع المستوردة والعلامات التجارية المعروفة. كذلك الحال، نرى تأصل ثقافة البعد عن مظلة الدولة في إنشاء الأعمال التجارية؛ خوفاً من الوقوع تحت طائلة المساءلة القانونية والضرائب، وتلك الثقافة زادت مع تأزم الحصول على فرصة عمل في العصر الحالي.

وعلى الرغم من وجود قيم متأصلة قد تكون غير رشيدة، فإن هناك وعياً مجتمعياً زائداً لفهم المتغيرات التي تطرأ على اقتصادات العالم ومنها مصر، فسرعان ما تحول المجتمع المصري بشكل كبير نحو الرقمنة، ومعظم الفئات المجتمعية توجهت نحو استخدامها والتأقلم معها خاصة أثناء جائحة كورونا. كما ظهر بشكل واضح استجابة مجتمعية نحو التوجه إلى الحفاظ على البيئة، والمشروعات الخضراء التي تحمي الأجيال القادمة. ومن هنا يظهر أيضاً دور الدولة في تعظيم الثقافة المجتمعية نحو توجهات تنفيذ عملية التنمية الاقتصادية، من خلال نشر الوعي المجتمعي الذي يحث على مشاركة المواطنين في تحقيق أهداف الدولة والارتقاء بها.



«الهوية» و«الموروث» قراءات في «التغيرات المجتمعية» وأصدائها في الدراما المصرية

سوزان عابد

باحث بمركز الدراسات الاستراتيجية، مكتبة الإسكندرية

مع دقائق الساعة مساءً كان الهدوء التام يُخيم على شوارع المحروسة وكبريات المدن وضواحيها. هدوء يوحي للعابرين والمارة أن حدثًا جليلاً قد وقع فألقى بظلاله على المدينة وناسها وأدخلهم في سُبات عظيم... إنه موعد إذاعة المسلسل الدرامي على التلفزيون المصري فمنذ سبعينيات القرن العشرين أصبح مشهد تجمع أفراد العائلة أمام شاشة التلفزيون طقسًا يوميًا مُعتادًا ومحببًا لدى الغالبية العظمى من أهالي بيوتنا المصرية. وما زلت أتذكر أحاديث والدتي وهي تقص عليّ ذكريات طفولتها عندما كان التلفزيون في المنزل أمرًا يستحق الاحتفاء وتوجيه الدعوات إلى الجيران والأصدقاء للحضور والتمتع بمشاهدة ما يُعرض من برامج ولقاءات ومسلسلات درامية. وكان التجمع يزداد قيمة وثناء عندما ظهرت تقنية التلفزيون الملون الذي يُتيح للمشاهدين التمتع برؤية أبطالهم بالألوان الطبيعية بدلًا من الأبيض والأسود؛ فكان التجمع المسائي عند الأسرة التي استطاعت أن تواكب تقنيات العصر بشراء هذا الساحر الملون. وشيئًا فشيئًا أدرك أصحاب المقاهي ضرورة اقتناء هذا الصندوق العجيب الذي استطاع جذب الزبائن وأجلسهم في بيوتهم أو بيوت جيرانهم؛ فتبارت المقاهي في هذا المضمار واستطاعت بسرعة مذهلة استعادة زبائنها وإتاحة الفرصة لهم بمتابعة مسلسلهم الدرامي وهم يرتشفون القهوة أو الشاي بجوار النرجيلة، وتحول مشهد المقهى في الساعة مساءً في أي شارع أو ميدان كأنه مشهد مكرر؛ لتجمع

عدد كبير من الرواد ملتفين حول شاشة التلفزيون يتابعون في شغف وحماس ما يُعرض لهم.

من هنا كان المفتاح السحري لاختراق وجدان المثقفين والبسطاء والعامّة وربات البيوت، اختراق مسلسل لا سبيل لمقاومته، خاصّةً إذا كان ما يُعرض يستحق المشاهدة والمتابعة ويفتح بابًا للنقاش والتفكير. فما زالت بعض الجمل الشهيرة تُقال اليوم كأنها أقوال مأثورة وإفيها تثير الضحك أو إيجاءات للغموض، وأتذكر منها على سبيل المثال «أنا البرادعي يا رشدي» من مسلسل «وتوالت الأحداث عاصفة» الذي عُرض في عام ١٩٨٢. ومن قبله مسلسلات مثيرة استطاعت جذب المشاهدين وأشهرها في الستينيات كان «القط الأسود» وغيرها. ولعل واحدًا من أشهر الأعمال الدرامية ذات القيمة الفنية والمعنوية كان مسلسل «الأيام» الذي يتناول سيرة ومسيرة عميد الأدب العربي طه حسين. وهنا نأتي إلى سؤال يطرح نفسه: هل سحب التلفزيون البساط من تحت أقدام القراءة والأدب المطبوع؟ هل نافست الحلقات المسلسلة روايات الأدب الماتعة؟ بالتأكيد كان للرواية المجسدة من شخوص وأماكن وأحداث في صورة مسلسل درامي دور مهم في جذب المشاهد والقارئ معًا، وإن كان جمهور القراءة لم يتأثر كثيرًا في بداية الأمر؛ فمتعة القراءة لا يوازئها متعة، ولكن هناك جمهورًا جديدًا ربما لم يقرأ من قبل أو لا يستطيع القراءة والكتابة من الأساس أصبح مهياً لتلقي ما يُعرض له من أعمال درامية مجسدة من لحم ودم.

أدرك بعض الكُتاب والأدباء والروائيين أهمية التوجه إلى الكتابة الدرامية وفقًا لمعايير عدة، وإن كان أهمها هو جذب المشاهد والوصول إلى وجدانه بأعمال تنافسية تطرح قضاياها ومشكلاته أو تفتح مداركه بأعمال بوليسية وكوميديّة.

واحد من رواد هذا اللون الأدبي وحامل رايته هو الكاتب والروائي المصري أسامة أنور عكاشة -رحمة الله عليه- فمن منا لا يتذكر «الشهد والدموع»، و«ليالي الحلمية»، و«الحب وأشياء أخرى»، و«ضمير أبلة حكمت»، و«النوة»، و«أرابيسك»، و«زيزينيا»، و«رحلة السيد أبو العلا البشري»، و«أبو العلا ٩٠»، و«امرأة من زمن الحب»، و«أميرة في عابدين»،

و«لما التعلب فات»، و«كناريا وشركاه»، و«أهالينا»، و«عفاريت السيالة»، و«وما زال النيل يجري»؛ و«وقال البحر» وغيرها من أعمال لها بصمتها في وجدان المصريين والمجتمعات العربية^(١).

لم تأت هذه الأعمال من فراغ أو من قبيل المصادفة والحظ، فعكاشة كان يملك مشروعًا أدبيًا ورؤية فنية وأدبية متفتحة، فكان واعيًا ومُلمًا بالتغيرات المجتمعية المتباينة التي اتصفت في أغلبها بالسرعة والمباغثة، فوضع يده على كثير من انعكاسات هذه التحولات والتغيرات وصاغها في عدد من الأعمال الأدبية الدرامية. ولم يكتف بذلك، فقد ساعده تخصصه الأكاديمي بدراسته لعلم النفس والاجتماع بكلية الآداب بجامعة عين شمس، أن يتنبأ بأثر تلك التحولات في الأسرة المصرية كوحدة صغيرة وعلى المجتمعات المحلية والمجتمع العربي كله. وهدف من ذلك أن يسלט الضوء على تلك التحولات وما لها من إيجابيات أحيانًا، وسلبيات في الأغلب وطرح حلول ورؤى لبعض تلك السلبيات على لسان أبطاله.

والممتنع لأعمال أسامة أنور عكاشة يستطيع أن يعي هدفه النبيل، وفي الوقت نفسه يتمتع بوجبة فنية متكاملة دسمة، ولعل هذا ما عكس فكر عكاشة الذي عبر عنه في مقال منشور بعنوان «الطواف حول تمثال قديم» حين أوضح فيه مفهومه ورؤيته لدور الفن في نهضة الأمم قائلًا: «والنهضة لا تقف أبدًا على ساق واحدة هي الازدهار المادي متمثلًا في الصناعة أو التجارة أو مظاهر الانتعاش الاقتصادي... بل لا بد وأن يصاحبها في نفس الآن ازدهار الإنتاج «الروحي» من إبداعات فنية وأدبية وانبعاثات لقدسية العلم واحترام العقل... هنا يتوافر للنهضة ساقان تتحرك بهما لتحقيق أهداف الأمة في اللحاق بركب الحضارة الذي يتسارع خطوه على إيقاعات عالم يتغير بسرعة الصوت!»^(٢).

(١) كان أول عمل درامي يكتبه أسامة أنور عكاشة خصيصًا للتلفزيون في عام ١٩٧٧ مسلسل «الحصار». وذلك وفقًا للتصريح الذي صرح به الكاتب أسامة أنور عكاشة بنفسه في لقاء تلفزيوني بعنوان «دردشة» من تقديم الإعلامية سهير شلبي، وإخراج عبد الحكيم التونسي، انظر: «دردشة: سهير شلبي مع أسامة أنور عكاشة مؤلف مسلسل ليالي الحلمية وأهم روائع الدراما التلفزيونية»، Youtube، <https://www.youtube.com/watch?v=DNY06EDS9AE>.

(٢) أسامة أنور عكاشة، على الجسر: مقالات وحكايات القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥: ٥٧-٥٨.

وإذا حاولنا تتبع بعض القضايا المجتمعية التي سلَّطَ عليها الضوء وعلى رأسها «الهوية» و«الموروث» بجميع أنماطها، يمكننا رصد ذلك بوضوح في أعماله الدرامية منذ البدايات. وقد تم اختيار نماذج محددة من الأعمال الدرامية التي كتبها الراحل أسامة أنور عكاشة، وفقاً للقضية التي تناقشها الدراسة وهي الهوية والموروث والتحويلات المجتمعية، مع استثناء بعض الأعمال التي عاصرت فترة تحولات سياسية كبرى لا سيما فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر، والتحول من النظام الملكي إلى الجمهوري، ونكسة ١٩٦٧، والصراع العربي الإسرائيلي وغيرها من التحويلات التاريخية المرتبطة بالظرف السياسي والأحداث الخارجية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مسلسل «زيزينيا» (جزآن)، ومسلسل «ليالي الحلمية» (خمس أجزاء)، أما الجزء السادس فهو من تأليف أيمن بهجت قمر وعمرو محموديس). والهدف من ذلك تسليط الضوء على قضية الهوية والموروث في أعمال أسامة أنور عكاشة في الأعمال التي تدور أحداثها في الفترات التاريخية المستقرة نسبياً من الناحية السياسية؛ لرصد التغيرات المجتمعية وأثرها في شخوصه الروائيين. ومن هذه الأعمال:

«المشربية»

في عام ١٩٧٨ كان المشاهدون والمتابعون للتلفزيون المصري على موعد مع عمل مميز من الأعمال المبكرة للكاتب والروائي أسامة أنور عكاشة «المشربية». ففي خمس عشرة حلقة جاءت جميعها من داخل درب السنجق بحي الجمالية بالقاهرة، بدأت أحداث الحكاية حول عباس الحلواني (الشهير بعباس أبو قورة) البلطجي التائب الذي ترك أعمال الشغب والعريضة وانتبه لمهنته وحرفته التراثية، وأبناء درب السنجق بمختلف مشاربهم. درب السنجق الذي يملك واحداً من أهم البيوت الأثرية المميزة «بيت الحلواني»، وتديره وزارة الثقافة وتُخصّصه للفنانين والرسامين للإقامة فيه لاستكمال مشروعاتهم الفنية ورسومهم. أما أهالي درب السنجق فمن بينهم السيدة نبوية الدلالة، وابنتها بدرية المتمردة على الدرب وأهله وعلى مستوى المعيشة التي تحياها فيه، والمعلم شحاتة العايق صاحب مقهى ويمارس أعمال الفتوة والبلطجة على أهالي الدرب، وعوضين الهارب من جنوب مصر في قضية تار

متوارث لا ناقة له فيه ولا جمل، وعم حمزة وابنته فردوس التي تسعى جاهدةً إلى كسب المال الحلال لتوفير العلاج لوالدها المريض، وبهلول المجدوب.

أما «بيت الحلواني» فقد كان بمنزلة قبلة -زائفة- للفنانين، اجتذب كثيراً من الفنانين والرسامين التشكيليين الذين يملؤهم الطموح لكن مشاغبات ومضايقات عدة حدث لهم بالبيت اضطرتهم إلى الهرب وترك البيت، حتى جاء الرسام صبري عبد السلام وهو فنان متعالٍ على المجتمع وعلى ثقافته، وبدلاً من أن يكون جسراً بين الفن والمجتمع من خلال التبسيط والنقل، كان دائماً ما يترفع عن الدخول في أي نقاش يتطلب منه شرح بعض الاصطلاحات أو توضيح وجهة نظره أو رؤيته.

تمضي الحياة في درب السنجق إلى أن يأتي الدكتور أنيس عبد الباقي أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وهو يملك أيضاً تصريحاً من وزارة الثقافة يسمح له بالإقامة في «بيت الحلواني» لاستكمال مشروعه البحثي التاريخي. أثار الدكتور أنيس ضجة في درب السنجق بأن أعلن وجود كنز في «بيت الحلواني»، وهو شكومية تحتوي على أوراق مهمة ترجع إلى السيدة فاطمة المصرية تثبت زواجها بنابليون بونابرت أثناء الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) وبها عقد لماري أنطوانيت. وحول هذه السيدة وعلاقتها ببونابرت يدور البحث التاريخي الخاص بالدكتور أنيس. لذا أعلن الدكتور أنيس أن من يجده فله مكافأة سخية؛ فانقلب حال الدرب وأخذ الجميع يحلم بالعثور على هذا الكنز. فاستغل أستاذ التاريخ حلم البسطاء بالثراء، ورغبتهم في تحقيق أحلامهم المادية، وسخرهم للبحث عن الشكومية ضارباً عرض الحائط بما يفجره حلم الثراء السهل بداخلهم من صراعات وتنافس مذموم فيما بينهم. تلك الصراعات التي أدت في النهاية إلى هدم أجزاء كبيرة من البيت وسقوط المشربية الأثرية، وانتهى الأمر في كوميديا سوداء بأن اكتشف الدكتور أنيس سقوطه في خطأ علمي نتج عن ترجمته غير الصحيحة لاسم البيت من «بيت الحلوجي» إلى «بيت الحلواني»، ولكن بعد أن سقطت المشربية وتعرضت الفسقية البديعة للتخريب وفقد البيت زجاجة الملون البديع. ومع ذلك لم تنهَر أحلام أهل درب السنجق في كنز «بيت الحلواني»؛ فقد أدركوا أن الكنز الحقيقي هو البيت نفسه والميراث المعماري

والفني المكنون في تفاصيل هذا البيت وغيره من عمائر تزدان بها المحروسة. وقد جاء ختام العمل واقعياً حينما تحول «بيت الحلواني» إلى قبلة حقيقية للفنانين ومحبي الفن والطلبة وكل من أدرك قيمة الفنون والمعمار وأراد التعمق في دراستها.

وقد انعكست رؤية عكاشة واقتناعاته وآراؤه على شخصيته الدرامية رشا الفنانة الشابة التي تربطها علاقة زمالة بالرسم صبري عبد السلام. وقد تميزت رشا بأفق رحب وخيال واسع وقلب محب أتاح لها الفرصة بقبول درب السنجق وأهله بسلبياتهم وإيجابياتهم. فلم تقف موقف القاضي الذي يوجه أحكاماً على شخوص الدرب، بل انخرطت في فكرهم وكانت ترى الأمور بعيونهم. أدركت رشا أن غالبية الفنانين كانوا منعزلين عن الدرب وأهله فلم يستطيعوا التأثير به أو التأثير فيه. وبهذا كان أهل درب السنجق بمعزل عن بيئتهم التراثية وقيمتها المعنوية وأهميتها التاريخية؛ لذا قررت أن تخوض تجربة معايشة أهل الدرب والانخراط بينهم بدلاً من الانعزال بعيداً كما فعل أغلب العابرين بهم وب«بيت الحلواني». وربما أوضح عكاشة هذه الفكرة وبلورها على لسان بطلته السيدة نبوية الدلالة التي دخلت في نقاش مع الفنانة رشا بعد أن صارحتها برغبتها في العيش بينهم والدخول في تفاصيل حياتهم ويوميّاتهم. فقد عبرت السيدة البسيطة عن زوار «بيت الحلواني» بأنهم جميعاً كانوا يأتون للإقامة في البيت للوصول إلى هدفهم الفني ويتركون البيت دون أن يرى أهل درب السنجق نتائجهم الفني ولا يعلمون عنه شيئاً، ولم يسعوا مطلقاً إلى فتح باب للحوار بينهم وبين رسومهم التي لا يدركون قيمتها ولم يتأثروا بها، باستثناء ابنتها بدرية التي كانت شديدة الجمال حتى اتخذها أغلب الرسامين نموذجاً مثاليّاً للرسم في «بيت الحلواني». وبخلاف ذلك فهي وأهل الدرب لا صلة بينهم وبين الفن، ومع توالي الأحداث عادت بعض الأمور إلى نصابها الصحيح.

ولكن ماذا تعني المشربية لأسامة أنور عكاشة؟ «كل واحد فينا له مشربية، على قدر وسع شبابيكها بتكون نظرتة لنفسه وللناس». تلك هي الجملة التي لخصت رمزية المشربية وفكرتها عند عكاشة، والتي جاءت على لسان واحدة من شخوصه الروائيين -رشا- بكونها حاجزاً يمنع العقل والعين عن التفكير بشكل منفتح والرؤية البانورامية للأحداث

والأشخاص، وتكمن خطورتها في أنها خادعة؛ فهي لم تمنع إعمال العقل بل تعوقه، ولم تحجب الرؤية كلية بل تُضيقها وتجعلها أكثر محدودية. وبذلك تكون هذه الملحمة الدرامية تأطيراً لعلاقة الإنسان بالمكان في المجمل، وعلاقة الفن بالمجتمع و«الهوية الثقافية» لبعض الشوارع والدروب والأحياء التي تكسبها قيمة تراثية وفنية يجعل لها خصوصية وتفرداً. فأهالي الأماكن التراثية لا بد أن يؤمنوا من داخلهم بقيمة أنفسهم وبقيمة الأبنية والمنشآت التي تحيط بهم، وأن يكون هناك رابط بينهم وبين تلك الأبنية، بصفتهم خط الدفاع الأول عنها لصونها وحمايتها، وكذلك هم الوجهة الأولى لزوار تلك الأماكن وضيوفها.

«أبواب المدينة»... يوميات عن الناس والمكان

في عام ١٩٨١ خرج بنا أسامة أنور عكاشة من أفق المسرحية وعالمها إلى عالم أكثر رحابة واتساعاً حين أدخلنا معه ومع أبطاله من «أبواب المدينة»، عند عرض أولى حلقات الجزء الأول من هذا العمل الدرامي المتميز الذي عزز موهبة أسامة أنور عكاشة في فن السيناريو والحوار، وأكدها لقطاع الإنتاج الدرامي أولاً ولجمهور التلفزيون ثانياً. فعلى الرغم من الإمكانيات الفنية البسيطة من حيث التصوير والمونتاج والإخراج والمشاهد الخارجية التي أخذ أغلبها في الاستوديوهات، فإن النص المكتوب بحرفية شديدة تمس فئات عدة من شرائح المجتمع، والجهود الفنية المبذولة من فريق العمل وعلى رأسهم الفنان محمود المليجي، وعبد المنعم إبراهيم، وصلاح السعدني، ودلال عبد العزيز، ونسرين، وسُمية الألفي، وسيد عبد الكريم، وغيرهم من مُبدعين أثروا العمل وزادوا قيمته بالتأكيد - جعلت حلقات «أبواب المدينة» ملحمة فنية رائعة فتحت «أبواب المدينة» أمام جمهور عريض من المشاهدين من مصر والعالم العربي على اختلاف مشاربهم.

أما القضية التي طرحها عكاشة في هذا العمل، فكانت بشكل أساسي «الهوية المجتمعية» المتمثلة في علاقة الريف بالحضر وبالمدينة، وتحديدًا علاقة المجتمع الريفي بالمدينة وتقاليدها التي تختلف بعض الشيء عما نشأ عليه أهل الريف. فأخذ عكاشة يفند هذه العلاقة التي

تتجانس أحياناً وتتباين في أحيان أخرى. وذلك من خلال شخوص خط ملامحهم بعناية شديدة، منها شخصية الدكتور أمين الطالب بكلية الطب من قرية نوسة، والذي ارتحل من قريته قاصداً المحروسة حيث قطن بشارع الفوأل الشعبي بحي السيدة زينب، واحتك بمجتمع المدينة البسيط في شكله لا في تفكيره ورجاحة عقله. وأتاحت له الدراسة فرصة الاحتكاك بالطبقة الثرية من المجتمع، والتي جسدها أنور عكاشة في هيئة أستاذ الجامعة وابنته ميرفت إذ جمعتهم وإيهامها علاقة الطالب بأستاذه والزميل بزميلته. وفي الوقت نفسه فتحت الباب لأمين لدخول المدينة من باب مختلف شكلاً ومضموناً عن باب شارع الفوأل. ولم يكن الطالب أمين هو النموذج الوحيد المطروح للقروي الذي انغمس في المدينة، بل هناك شخصية الأستاذ كامل أفندي النوساني وزوجته وابنتيه ميرفت وشادية. وهو من قرية نوسة أيضاً لكنه عاش بالقاهرة وتزوج وأنجب ابنتيه فيها. ولكن كامل أفندي عاش بروح وموروث وفكر قريته؛ فنجده، رغم حرصه على تعليم بناته، منغلِقاً ومتشددًا في بعض المواقف التي تمس علاقة الفتاة بالرجل وإن كانت هذه العلاقة زمالة في العمل أو علاقة حب.

أما الجزء الثاني من «أبواب المدينة» فيبدأ بإرساء وضع اجتماعي جديد، إذ انتقلت أسرة الأستاذ كامل النوساني من بيته المتواضع بشارع الفوأل إلى فيلا راقية بحي المهندسين. فابنته الكبرى شريفة التي ترملت في ليلة زفافها أصبحت وريثة شرعية لثروة كبرى تركها لها الحج سيد الفوأل؛ أما صبحي وصفية فقد تزوجا ورزقا بولدين، والدكتور أمين أصبح طبيباً في الوحدة الصحية بقرية نوسة. وقد استغل عكاشة الثروة الضخمة التي آلت إلى ميرفت كامل النوساني في طرح ورصد وتحليل التغيرات التي واكبت هذه الثروة على أفراد الأسرة بشكل أساسي، وعلى المحيطين بها بين طامع وحاقد ومستغل، وتوالت الأحداث في تصاعد درامي تتشابك فيه المصالح والمشاعر والمال.

تنوعت الشخصيات التي سطرها عكاشة في أحداث ويوميات الناس والمكان، فجاء العمل الروائي الدرامي مكتظاً بالشخصيات المتباينة، لكن مما يُحسب له أنه لم يقصر

الصفات والأخلاقيات على مجتمع بعينه، فلم يُظهر شخصيات أهل الريف «قرية نوسة» بشكل سطحي أو جعلهم نموذجًا للصفات الحميدة المرتبطة بالمجتمعات المغلقة، أو ربط الأصالة والأخلاقيات والتمسك بالعادات والتقاليد بأهل الريف فقط. فنجده يطرح نموذج الطالب بكلية الطب الدكتور أمين وهو يستغل ابنة عمه في قصة حب زائفة لم يستطع مواجهتها برغبته في الزواج بزميلته ابنة الأستاذ الجامعي. وفعل الأمر نفسه مع زميلته التي وجد فيها فرصة حقيقية لتحسين وضعه المادي. ولكن في ختام العمل جعل أمين يُعيد حساباته ويرى نفسه من جديد في مرآة كاشفة لأفعاله؛ فيؤنبه ضميره ويشعر بالندم لفعلة مع الفتاتين. وهنا تغلبت الأخلاق التي انغrust فيه على الشخصية المادية المستغلة التي كانت قد بدأت تتشكل بفعل التحولات المادية التي عاشها. والأمر نفسه مع أهل المدينة أو الحضر، فعكس شخصيات متنوعة متمسكة بالعادات والتقاليد التي تربت عليها، والتي تختلف بعض الشيء عن عادات الريف وتقاليده.

«الحب وأشياء أخرى»

طرح عكاشة في عام ١٩٨٦ قضية تبدو للوهلة الأولى تقليدية وهي «الحب والمال»، ولكن التعمق في نص عكاشة يكشف البُعد الأساسي الذي انتهجه في هذا العمل وهو الموروث الاجتماعي وميراث المعتقدات التي قد يرثها الإنسان أو يُرثي وينشأ عليها، أو يجبره عليها المجتمع تحت ضغط وسطوة عادات وتقاليد بالية وغير صالحة للزمن الذي يحياه الإنسان. فالهوية هنا لم تكن في صورتها التنافسية كما جاء في «أبواب المدينة» بين هوية المجتمع الريفي وهوية المجتمع الحضري، بل جاءت هنا بين أبناء المدينة الواحدة.

قصة حب رومانسية بين سامح (الفنان ممدوح عبد العليم) خريج الكونسرفتوار الذي كان مرشحًا للتعيين مُعيدًا بالمعهد لولا ظروف إدارية حالت دون ذلك، وهند (آثار الحكيم) فتاة جميلة ثرية تعمل طبيبة. كانت هند ابنة وحيدة لطبيب مشهور هو الدكتور سلام صاحب المستشفى الكبير والشهرة العريضة، والذي حرص على أن تلتحق ابنته بالطب

حتى تحمل لواء المهنة والمستشفى من بعده. إلى هنا تبدو القصة تقليدية لفتاة ثرية وشاب متعلم، متواضع مادياً - غير ثري بمفهوم عائلة العروس - لكن عمق الكتابة التي خطها عكاشة تعكس تشابكات وأبعاداً أكثر تعقيداً من الإطار العام للعمل الدرامي المتمحور حول قصة الحب.

وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ عكاشة أولى حلقات العمل الدرامي بمشهد يجمع سامح بزوج أخته الأسطى فرج، وأخته سميحة، وهو يفاتحهما في أمر التقدم لخطبة هند واقتراانه بها، فكان الامتعاظ واضحاً على وجه أخته وزوجها لسببين؛ الأول هو رغبتها غير المعلنة في أن يتزوج سامح بإكرام أخت الأسطى فرج التي نشأت ورُبيت مع سامح، والسبب الثاني هو إدراكهما للفارق المادي بين العروسين، والذي اعتقد كل منهما - سامح وهند - أن الحب قادر على تخطي هذه الحواجز والفوارق الاجتماعية المتمثلة بشكل أساسي في المال في ظنهم.

وبتحليل الشخصيات التي طرحها عكاشة نجد أن سامح شاب فنان تقليدي متأزم فكرياً، تتأرجح شخصيته بين شخصية حساسة مرهفة المشاعر، وشخصية مهزوزة ضعيفة متحجرة الرأي، أما الطبيبة الشابة هند فهي شخصية ناجحة طموح، وجدت في سامح وحبه ملجأ عاطفياً بعيداً عن أسرتها ومجتمعها الذي يُقيم كل شيء بحسابات المادة والمال.

وربما كان أول لقاء جمع بين سامح ووالد هند مباشراً وواضحاً في تأطير الأزمة، عندما باغت الطبيب المشهور والد العروس هذا الشاب الخالم بأن الموسيقى السيمفونية رائعة مميزة ولكن لا سوق لها. فتعجب سامح من تسليع الموسيقى والتعامل معها على أنها منتج مادي له سوق وسعر، وأن ابنته طبيبة ولها مستقبل مادي مُبشر؛ فكيف له بمواكبة الأمر والتلاؤم معه؟ كان هذا التساؤل هو محور المشاكل الدائمة بين سامح وهند بعد زواجهما، فلم يتقبل سامح بفكره وشخصيته أن تستقل هند مادياً وتنطلق لتحقيق طموحها العملي والمادي، وحاول جاهداً أن يصنع مجتمعاً مشتركاً بينهما بأن تفتتح عيادتها بـ «درب سماحة» حتى تمتزج به وبأهل منطقته. وبعد محاولات عدة من شد وجذب تبارى فيها مجتمع الوالد

بمشفاه الاستثماري وسامح برومانسيته الحاملة وموسيقاه العذبة. فشلت الزيجة وتفنن الاثنان في التضييق كل على الآخر في المحاكم، وانتهت في النهاية بانفصالهما. لتعيد طرح السؤال من جديد: هل المال هو السبب في هدم هذا العُش السعيد؟

فتأتي أفكار عكاشة وآراؤه على لسان اثنين من شخوصه الروائيين، وهما:

شخصية الأسطى فرج: ترزي ورث المهنة عن أستاذه وبرع فيها ونقل أصولها وفنونها إلى تلميذه (صبيه). وتعد شخصية الأسطى فرج النموذج الأكثر تفتحًا واتساعًا للأفق؛ فقد عارض في البداية الزيجة التي كان يرى أن أسباب فشلها أكبر من مقومات نجاحها. ولكن كان مؤمنًا بأهمية التجربة، وظن أن تعليم سامح وفنه قادران على طرح نموذج مغاير وأكثر مرونة وتجانسًا مع العصر! ولكن خابت ظنونه في التجربة التي خاضها سامح وهند، والتي لخصها في النهاية في حديث عذب عندما قرر سامح السفر إلى فرنسا لفتح أفق عملي جديد. فقد كرر الأسطى فرج السؤال ذاته بمن المخطئ؟ وما السبب؟ وأجاب على نفسه بـ«الي زينا... الي طالعين من قلب ألف سنة اتعجنت بالتراب وعرق الصنعة ومية نيل روت مليون زرعة مفيش حاجة بتموت جواهرم... لا الحب يموت بالفراق ولا الفرح يموت بالحزن... إحنا أسطوات... صنايعية تأييف وتفصيل ومفيش حاجة بتتري... كله بيعيش جوانا... مين فينا غلط ومين السبب؟ سؤال غلط... الوقت هو الي وحش الوقت الي فات عايش في الوقت الي حاكمنا والخوف منه على الوقت الي جاي».

شخصية الخال (خال هند): (الفنان رشوان توفيق) في مشهد الختام أيضًا وهو يجاور الدكتور سلام (والد هند) عقب تطبيق سامح لهند وعودتهما منهزمين نفسيًا من أروقة المحاكم، توجه الخال بسؤال فلسفي أعقبه بحوار عميق واع: «مقتنع إنك انتصرت يا سلام؟ الحب لم ينهزم... المنتصر اليوم هو الظرف والتاريخ». وهنا تظهر شخصية أسامة أنور عكاشة في تعبيرات وتراكيب الجمل وانتقاء المفردات التي صاغها على لسان خال هند وقضية «الزمان والمكان» التي عبر عنها بمفردة «الزمكان» في إحدى مقالاته التي كان ينشرها بالصحافة. وهو ما أوضحه الخال في حديثه مع الدكتور سلام المنتشي بزهوة النصر بانفصال

ابنته الطيبية عن «المزيكاتي» بعد أن قام برفع دعوى قضائية للتفريق بينهما لعدم التكافؤ، والتي انتهت في جلستها الأولى بتطبيق سامح لهند بكامل رغبته قبل أن يشرع القضاء يخوض في تفاصيل القضية وملابساتها؛ فانتهاز الحال الفرصة ليكيل للدكتور سلام قائلًا: «نحن انهمزنا أمام ظرف في أيام يحكمها منطق البقاء للأغنى، وقوة المال مسيطرة على العقل والقلب... قوة لا يتجاهلها أي إنسان مهما كان... أما التاريخ فهو ميراث التخلف الذي يفرض علينا مقاييس الرجل والمرأة... من الحاكم ومن المحكوم... ميراث الشنب الذي يقف عليه الصقر... ميراث الحریم وهو ما يحركنا... مهما تعلمنا لم نتحضر بعد... أنت ظرف وليس تاريخ، ولحسن الحظ أن الظرف دائمًا مؤقت».

وبالرغم من وجود شخصيات متفتحة مؤمنة بقضية العمل الدرامي، لكن النموذج المثالي جاء من خلال شخصية طيب (الدكتور رأفت) يعمل بالمستشفى الاستثماري الذي يملكه والد هند بالمشاركة مع طيب، إذ أعجب الطبيب الجاد ذو الأصول الصعيدية بصديقة هند المترفة، والتي انفصلت عن زوج كان يكبرها بعشرات السنين وخرجت من التجربة بآبنة صغيرة لا توليها أي اهتمام أو رعاية، وانخرطت في حياة السهر والسفر والخروج. وهنا كان الطبيب أميئًا وصادقًا مع نفسه ومع «دولي». وأخبرها أن هذه الحياة لا يتقبلها ولا يوجد تكافؤ بينهما، ولكن هنا كان المقصود تكافؤًا فكريًا وعقليًا وليس ماديًا. ودارت الأحداث حتى وصلت بالاثنين إلى منعطف استطاعت فيه السيدة المدللة أن ترى قيمة الطبيب الصعيدى الشهم ومعدنه الأصيل الذي وقف أمام فساد العلاج الاستثماري وتجاوزات المستشفى الذي يعمل به. وكان هذا الطبيب الشاب بمنزلة حائظ صد متسلح بالقيم والمبادئ المغروسة فيه بالفطرة، والتي زكاها بداخله المجتمع والأسرة التي خرج منها، ولم يفقد بوصلته أمام مغريات الفاسدين. وهنا نجد موقف الدكتور رأفت يتبدل من الرفض إلى القبول، وإعطاء التجربة والصدقة فرصة أن تمهدا الطريق بينهما وتمدا جسور الود والحب الصادق المؤسس على أرض صلبة تستطيع مقاومة عواصف الحياة ومنحنياتها.

«الراية البيضاء»... وتستمر المعركة

على متن باخرة مبحرة في مياه بحر المتوسط ومتجهة إلى مدينة الإسكندرية، تبدأ حكاية السفير المتقاعد الدكتور مفيد أبو الغار، والتاجرة السكندرية الثرية فضة المعداوي. قضية ما زالت حلقاتها مطروحة ومحل نقاش إلى اليوم، وهي «هدم المباني التراثية ذات القيمة التاريخية والفنية». ومن التفاصيل المهمة في العمل أن الحلقات كعادة الروايات الدرامية لأنور عكاشة تأتي أغلبها معنونة، وفي «الراية البيضاء» جاءت على نحو (الجولة ١، الجولة ٢، الجولة ٣... وصولاً إلى الجولة الـ ١٦ وهي الحلقة الأخيرة). كما تمت الإشارة إلى مخرج العمل الدرامي بطريقة مميزة وهي «معركة يُديرها محمد فاضل»؛ أما تتر الختام فيبدأ بمجملته: «وتستمر المعركة»^(٣).

في أكتوبر ١٩٨٨ أذيعت أولى حلقات «الراية البيضاء»، والتي كانت بمنزلة استشراف لمستقبل فيلا الدكتور أبو الغار في الرواية الدرامية، وفي أرض الواقع فيلا المهندس عثمان باشا محرم الملقب بشيخ المهندسين المصريين، والذي تولى وزارة الأشغال العمومية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ أكثر من مرة. ومن المضحكات المبكيات أن الفيلا الحقيقية تعرضت للهدم بعد أن صدر قرار رقم ٤٧ لسنة ٢٠١٠ بهدم الفيلا. وكان عكاشة وفاضل قد أدارا المعركة مبكرًا، واستمرت ما يزيد على العشرين عامًا مستمرة إلى أن رفعت الفيلا فيلا عثمان محرم بمنطقة سيدي بشر بكورنيش البحر «الراية البيضاء».

وفي سبيل حصول الحاجة فضة المعداوي على الفيلا، خاضت كثيرًا من المعارك حاولت فيها استغلال جميع الأساليب المشروعة وغير المشروعة، بدايةً من محاولة شراء ذمة المحامي الخاص بالدكتور مفيد أبو الغار، وإغرائه بالمال والعمولة الكبيرة، ثم محاولة التودد للدكتور أبو الغار نفسه بالزيارات الودية في استعراض لقوتها وهيمنتها، وصولاً إلى المواجهة الحتمية

(٣) لقاء تليفزيوني نادر: يمثل بروفة طاولة جمعت المخرج محمد فاضل والروائي أسامة أنور عكاشة، وأبطال العمل: جميل راتب، سناء جميل، هشام سليم، سيد زيان، وسيد عبد الكريم، بصحبة الإعلامي مفيد فوزي وإخراج جميل المغازي، انظر: «لقاء العملاقة سناء جميل وجميل راتب ومحمد فاضل، بروفة ترايبزة نادرة من مسلسل الراية البيضاء»، <https://www.youtube.com/watch?v=MaoGVR1XGxU>

بين الدكتور مفيد والمعلمة فضة. وهي في الواقع مواجهة بين القيم والمبادئ الراقية للفن والثقافة والأصالة، والسوقية والتدني وسطوة المال التي تعتقد قدرتها على شراء كل شيء. صراع دائم مستمر إلى يومنا هذا سواء على مستوى المباني التراثية أو المهن والحرف والصناعات التراثية التي تحتاج إلى أنامل موهوبة تُعيد صياغة الموروثات التي حملها الفنان في جيناته وعبر تاريخ أجداده وتُخرجها مجسدةً على الخشب والعاج والنحاس والخزف.

احترم الصراع عندما استطاعت الحاجة فضة بالتحايل والغش أن تحصل على توقيع المحامي أنيس على ورقة إيجار للفيلا. وبالفعل أخذت مساعدتها النونو وحمو والمعلم حنفي البحر، وأقاموا بالقوة داخل الفيلا -وفقاً للوضع القانوني الجديد- وانتهجوا معه سياسة المضايقات بالصوت العالي والغناء النشاز وإشاعة الفوضى في الفيلا، والتعمد بالإضرار بالسجاد العجمي والفازات الخزفية واللوحات الفنية النادرة، وإقامة حفلات سهر تشدو فيها الأغاني الهابطة -وليس الشعبية- حتى يخضع أبو الغار ويبيع الفيلا مجبراً. وفي الحقيقة هو صراع بين الفن والرقي والتذوق والأدب، وكل ما هو قبيح ودخيل لا فن ولا أصل له. وواحد من المشاهد المهمة جداً والمؤثرة كان مشهد سقوط إحدى الفازات على الأرض وتهشمها، فإذا بعيني الدكتور مفيد تملؤهما الدموع، وفي الوقت نفسه الحاجة فضة تُلقي بالأموال إليه لشراء بديل لها! غير مدركة قيمتها الفنية أو تاريخها الفني الذي يزيد على خمسمائة عام، من عهد أسرة مينغ في الصين.

لم تكتفِ فضة ومحاميتها أبو طالب شيحة بالمضايقات السابقة، بل استخدموا الرّشّي والفساد الإداري لبعض المنتمين إلى الجهاز الإداري للدولة في استخراج قرار إزالة للفيلا واعتبارها آيلة للسقوط. وجاء ختام العمل بمشهد اعتصام أهل الأصالة والفنون والآداب، أمام آلات الهدم والتدمير التي تتقدمها فضة المداوي. وفي تتر النهاية اختتم العمل بفقرة كتابية عبقرية: «نداء... الجالسون على الرصيف حول فيلا أبو الغار بالإسكندرية ينادونكم للجلوس معهم حتى لا يضطر الدكتور مفيد أبو الغار وفريقه إلى رفع الراية البيضاء».

وبالرغم من النهاية غير المتوقعة جماهيريًا للرواية الدرامية التي سطرها أنور عكاشة، فإنها في الوقت نفسه نهاية منطقية أثبتت السنوات اللاحقة أنها قضية لن تنتهي في يوم وليلة وأن نموذج فيلا أبو الغار يتكرر كثيرًا. وبالفعل عايشنا في السنوات القليلة الماضية قضايا عدة تتشابه مع قضية فيلا أبو الغار ربما ليس في تفاصيلها ولكن في مضمونها. بالإضافة إلى قضايا أخرى تتشابه مع قضية فيلا أبو الغار لا بد من طرحها ومحاولة الوصول إلى حلول غير نمطية لها، ومنها القضية العكسية، عندما يرغب الورثة الذين آلت إليهم مبانٍ أثرية أو مبانٍ تراثية ذات قيمة فنية ومعنوية وكذلك مادية في بيعها أو استبدالها بعمائر متعددة الطوابق. فمن المهم التفكير في إيجاد حلول غير تقليدية تتيح لهم الكسب المادي الذي يحقق لهم حقهم في ميراث شرعي آل إليهم بطريقة شرعية وقانونية، وبين تقنين وضع هذه المباني والحفاظ عليها وصونها. وذلك بتخصيص مبالغ مالية توازي قيمة تلك الأبنية لتعويض الورثة عن الجانب المادي وتمنعهم من التعرض لتلك المباني بأي سوء لاستغلال الأرض التي شيدت فوقها، خاصة إن كانت تلك الأبنية في مناطق حيوية ترتفع فيها القيمة الشرائية للأراضي العقارية، وأن تؤول ملكية هذه الأبنية إلى سيادة الدولة وتحت تصرفها على ألا تتعرض لها بالهدم أو تحويلها وإعادة استخدامها في أنشطة غير متماشية مع بنية الأبنية وأساسها. وإن كان هناك نماذج عدة آلت فيها الأبنية التراثية ذات القيمة الفنية إلى ورثة سخروا جهودهم في تحويلها إلى قبلة ثقافية وملتقى فني يلائم قيمتها وأصالتها.

ولكن هل كان مجتمع فضة بأكمله يمثل تيارًا واحدًا؟ بالطبع لا. وقد أكد عكاشة ذلك من خلال شخصية السيد حنفي عبد الكريم البحر (الشهير بالعربي) أستاذ فلسفة وعلم نفس، وهو ابن للمعلم حنفي البحر التاجر في حلقة السمك، والذي استنكر أعمال الحاجة فضة المعداوي ووالده المعلم حنفي في سبيل التضييق على الدكتور مفيد أبو الغار. وقد اعتبره الدكتور مفيد نفسه «اختراقًا لجبهة العدو». وبالفعل استطاع أن يقنع أخاه الأصغر عماد أن يتسلل إلى الفيلا حيث بيت والده المعلم حنفي، ويستغل نومه العميق، ويأخذ عقد إيجار

الفيلا من جيبه، ويسلمه إلى الدكتور مفيد أبو الغار. فكان بمنزلة انتصار جزئي استطاع به الدكتور مفيد طردهم من الفيلا والاستقلال بها مؤقتًا.

أما مجتمع الفنانين والمثقفين، فقد تناوله عكاشة من خلال حملة «انقذوا بيت أبو الغار».. تلك الحملة التي دشنها وقادها الفنان هشام أنيس (ابن المحامي أنيس أفندي) الذي بادر بالتنبيه لأهمية الفيلا وتاريخها وتعريف العامة بتاريخها وقيمتها وأصلتها، كما سعى جاهدًا إلى حث مجتمع المثقفين والفنانين على ضرورة الانتفاضة ضد هدم الفيلا وغيرها من المباني التراثية على شاكلة فيلا أبو الغار.

وفي «الراية البيضاء» حقيقة أخرى عززها أسامة أنور عكاشة، وهي الثمن المبذول في سبيل الدفاع عن الحق ونصرتة. وهو ما تجسد في شخصية كل من: الصحفية أمل صبور، والطباخ/ الشيف مطاوع (محمود الحديني) وكل منهما دفع ثمنًا غاليًا في سبيل دفاعهما عن الحق ونصرتة. ليسلط الضوء على أن الحق لا بد له من قوة تحميه وتصونه، والقوة هنا رمز متغاير وليس ثابتًا، يتبدل من معركة أو قضية أو أخرى. وعلى الرغم من أن الدفاع عن الحق أحيانًا تكون ضريبته موجعة، فإن أنور عكاشة اتخذ من شخصية الصحفية أمل صبور نموذجًا مثاليًا لهذا؛ رفعت لواء الحق وكتبت تقارير وتحقيقات صحفية مهمة عن المعركة الشرسة وجولاتها بين الدكتور مفيد والحاجة فضة حول الفيلا، بصفتها قضية مجتمعية وتاريخية لا تخص الدكتور مفيد وحده، بل تاريخ المدينة وتراثها وموروث المصريين.

«أرابيسك»... أيام حسن النعماني

بسعي دعوب واصل أسامة أنور عكاشة المضي قدمًا في مشروعه الفني، ف جاء عام ١٩٩٤ نقطة تحول مهمة في هذا المشروع المتفرد في استمراره ونهجه، فإذا بتتر مسلسل يُعرض في السابعة مساءً يبدأ بـ «المؤلف أسامة أنور عكاشة وروايته الجديدة»، وهي بمنزلة نقلة نوعية مهمة في صناعة الدراما، بأن تكون البطولة المطلقة هنا للكاتب، وأن العمل يستمد هويته

من مؤلفه، ثم تأتي التوليفة الموسيقية العذبة للموسيقار عمار الشريعي، وكلمات الشاعر سيد حجاب لتمتزج جميعها معاً في كلمات عميقة يشدو بها المطرب حسن فؤاد، ويختم حجاب الكلمات بمجملته مكثفة كاشفة لواقعنا «ولسة ياما حنشوف كمان».

أما التتر نفسه فهو يستحق بعض المشاهدات؛ فعنوان العمل «أرابيسك... أيام حسن النعماني... كوميدية شعبية» فجاء تعريف أبطال العمل وأدوارهم منصبية و متمحورة جميعها حول شخصية حسن، على النحو التالي: (حسن النعماني وأسرته، ورشة حسن وجيرانه، حبايب حسن وأصحابه، محاميه وكاتم أسرار، أهل الفيلا... وجوز أخته الشرير، والسر عند رجل الأمن) وهكذا.

كانت البداية من باب زويلة بعنوان «فذلكة تاريخية»، وبصوت راوٍ رخم يقص على المشاهد الخلفية التاريخية لعائلة النعماني التي تعود بجذورها إلى عهد غزو العثمانيين لمصر وشنق طومان باي عند باب زويلة ودخول السلطان سليم الأول مصر، وانبهاره بالمعمار المصري (الملوكي الطراز) وبالمشغولات المعدنية والخشبية والفنون المتنوعة التي راجت في المحروسة، ففكر في أخذ خيرة الصناعات والبنائين إلى إسطنبول لنقل فنونهم ومعارفهم إليها لتباهي إسطنبول القاهرة المحروسة. وبالفعل جاء مشهد المُنادي، وهو يطوف شوارع المدينة مُعلنًا رغبة السلطان سليم الأول في حضور أرباب طائفة المعمار إلى قلعة الجبل، وكان من بين أبناء هؤلاء الطائفة الأسطى عبد الرحمن النعماني المشهور بأعمال الخشب وتفانين النحاس، والذي انتقل بالفعل في زمرة من هُجِّروا إلى إسطنبول، وعاش وعمل ومات فيها، وقد ترك عبد الرحمن النعماني ابنه حسان في مصر المحروسة وهو النبتة التي تفرع منها سلسال حسن النعماني بطل الحكاية أو الكوميديا الشعبية كما سماها عكاشة.

وبعد هذا التمهيد الدسم والثري بعظمة الفنان المصري يأتي مشهد مخالف للتوقعات، إذ الحفيد الأسطى حسن النائم في سبات عميق وفي محاولة الأم لإيقاظه لفتح الورشة والانتباه لعمله وفنه وتركه لشلة السهر وحيات الانفلات التي يجيهاها حسن تاركًا مهنة أجداده وفنونهم على عتبات الورشة القاطنة بخان دوادار.

أما الورشة واسمها «المحروسة لمشغولات الأرابيسك»، فهي جزء لا يتجزأ من التاريخ، بل هي التاريخ نفسه؛ مداميك حجرية كبيرة الحجم تُشبه تلك التي بُنيت منها آثار القاهرة وعمائرهما... مداميك متراسة لا بياض يكسوها، تحتزن بداخلها مرويات عدة لتاريخ الورشة ودورها في تخريج أجيال من الأسطوانات المهرة إلى جانب المشغولات النحاسية والخشبية المصنوعة بفن وذوق مميز. أما الآن فآلات التقطيع ومكنات الخراطة وغيرها من آلات بسيطة العدد والتقنية تبدو كأنها شاخت، يكسوها التراب من قلة العمل، أو بتعبير أدق بعزوف حسن عن العمل متحججاً بأن الزمن الحالي ألقى بظلاله على مهنة الأرابيسك وأشغال النحاس والتكفيت والترصيع، فضعف الإقبال عليها واتجه الزبائن إلى المشغولات (الموبيليا) السوقية (التجارية) التي لا تتخذ من الفن منهاجاً، بل القيمة الشرائية للزبائن ومحاولة إرضاء الحدائة والذوق الرائج آنذاك.

وقد طرح عكاشة النموذج الضد لحسن أرابيسك في مهنته وهو زوج أخته الأسطى رمضان الفكهي الذي كان صبيّاً وتلمذ للأسطى فتح الله النعماني والد حسن، ولكنه استقل بالعمل وتزوج بابنة أستاذه وهي أخت حسن. وكان الأسطى رمضان نموذجاً للقبح الفني والاستغلال التجاري. وليس من قبيل المصادفة أن تكون ورشته مكسية بألواح الخشب الداكن يعلوها بياض أخضر اللون، فلا هوية ولا مضمون لها مثل ما تنتجه من قطع أثاث.

ودون الخوض كثيراً في التشابكات الدرامية الممتعة التي طرحها عكاشة والمثلة في أهل خان دوادار وأصحاب حسن وشلة المقهى وغيرها من شخوص روائيين جسدوا قيماً ومضامين ومبادئ متنوعة بين مَن حمل الوفاء والصدق بين جيناته، ومَن باع نفسه وعقله لمن يدفع الثمن. تباينت أفكار عكاشة ورؤيته ورصده للمجتمع المصري آنذاك، لكن التركيز في هذه الدراسة يسلط الضوء حول القضايا التي طرحها عكاشة عن التغيرات المجتمعية التي أُلقت بظلالها على واحدة من الحرف التراثية المهمة وهي صنعة الأرابيسك. وحقيقة الأمر أنها أثرت في المهن والحرف التراثية بشكل عام، لكن الحرف التي تتسم بالتكلفة العالية والدقة في العمل كانت الأكثر تضرراً، وفي مقدمة الحرف المتضررة من التغيرات

الزمنية والمجتمعية. وهو ما طرحه عكاشة ومزجه بأن المهن هذه قد تتعرض للاندثار إذا ما لم يستفق أصحابها لأهميتها ولتطويرها وتطويرها مع متغيرات العصر للحفاظ عليها.

وهو ما حدث مع حسن النعماني الرجل المتأزم على المستوى الشخصي نتيجة لفشل تجربة زواجه بابنة خاله وانفصاله عنها بعد أن أنجب منها ابنه الوحيد أيمن. ونتيجة لاستهتار حسن النعماني وعدم تحمله المسؤولية في السعي للعمل والكسب طلبت الزوجة الطلاق، ثم تزوجت من بعده وفرت إلى الدولة التي يعمل فيها الزوج الجديد وغابت عن خان دودار ما يزيد على سبع سنوات خوفاً من عودة الابن إلى أبيه. لتكون تلك الأزمة محفورة في ظلال وخبايا شخصية حسن النعماني وعقله الباطن ولكن بشكل غير مباشر.

أراد أسامة أنور عكاشة اختبار حسن أرابيسك واقتناعه وإيمانه بفته كما كان يُشهد له من قبل، فجاءت الفيلا الأرسقراطية التي يقطنها الدكتور برهان الدين، عالم الطبيعة والفيزياء النووية الذي عاش عمراً طويلاً في أمريكا وقرر العودة إلى مصر بصحبة زوجته دكتورة اللغويات ممتاز محل، وابنتهما الوحيدة بريكسام. فأراد أهل الفيلا عمل تغييرات في هوية الفيلا وديكوراتها وكان من بين المقترحات التي تحمسوا لها هي «القاعة الشرقية»؛ شرقية الطراز. لتكون المحك الذي أعاد إلى حسن شغف العمل من جديد في أشغال الأرابيسك وهو ما أسماه حسن نفسه عن هذا العمل «فتح انطلاقة».

ومع التسلسل الدرامي للأحداث ومجريات الأمور، كان «كرسي السلطان» - رمز شديد الخصوصية- يُمثل موروثاً فنياً ذا قيمة تاريخية وسياسية ومادية أيضاً، فعلى قاعدة الكرسي حُفرت عبارة: «بأمر مولانا أمير المؤمنين خاقان البرين والبحرين خليفة أمير رسول الله وسلطان آل عثمان أدام الله عز دواليه الشاه المعظم سليم الأول عمل في الآستانة صنّع الفقير إليه تعالى عبد الرحمن النعماني المصري». إشارة إلى أن الجد الأكبر عبد الرحمن النعماني هو من أبدع هذا الفن وورثه، ولكن هل حافظ حسن على هذا الميراث الفني وورث أجداده؟

أحداث كثيرة تقاطعت وتشابكت خطوطها وتفاصيلها بين حياة أهل خان دودار وتحولاتهم التي تمثل انعكاسات للتحويلات المجتمعية التي شهدتها مصر في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين، وبطبيعة الحال ألفت بظلالها على شخوص محددین استخدمهم عكاشة لرصد هذه التحويلات والتعمق في أسبابها ونتائجها، ومنهم على سبيل المثال شخصية فريال أورولا كما يناديها أغلب أهل الخان، الأخت المتعلمة تعليمًا جامعيًا والتي ربتها أختها الكبرى «عدولة» -نموذج المرأة المُعيلة- التي بذلت الغالي والنفيس في سبيل تأمين حياة أفضل للبنات الثلاث اللاتي أصبحن في كنفها بعد وفاة أبويهن. فريال طموح، متمرده على الخان وأهله، تطلعت للخروج منه خروجًا سريعًا في قفزة واحدة. وظنت أن تعيينها معيدة بالجامعة وتدرجها في المناصب الجامعية سيوفر لها هذا، ولكنها فوجئت أن هذا لن يتحقق بالعلم، فاتجهت إلى عالم الإعلانات التليفزيونية مستغلة جمالها الذي جذب إليها مخرج الإعلانات، وأقنعها بأنها الوظيفة التي ستحقق لها مستوىً ماديًا واجتماعيًا ملائمًا لطموحها وأحلامها. ولم تكن فريال هي النموذج الوحيد الذي ركز فيه عكاشة، فهناك أيضًا العجلاتي الذي ترك مهنته واتجه إلى الغناء. وهنا نتوقف عند «علاقة المجتمع والممثل في أهل خان دودار مع هذه التحويلات التي طرأت على أهل الخان».

وقد استطاع أسامة أنور عكاشة أن يجعل من زلزال أكتوبر ١٩٩٢ الذي ضرب القاهرة واهتزت له مصر علامة فارقة في أحداث العمل الدرامي واختبارًا حقيقيًا أمام كل ما هو هش خواء لا أساس له، وما هو أصيل ضارب بجذوره في عمق الأرض وطبقاتها من قيم ومبادئ وضمائر ومبانٍ لا ملامح ولا تاريخ لها. بيد أن هناك واحدًا من أهم الشخصيات الروائية التي طرحها عكاشة في هذا العمل الفني وهو شخصية الأستاذ وفائي، رجل مثقف قارئ وله عقل نقدي وتفكير تحليلي. رغم بساطة وضعه المادي، لم يتوان لحظة عن بذل المال في شراء القطع الفنية التي يؤمن بقيمتها، والتي جسدها عكاشة في «كرسي السلطان» فولولا الأستاذ وفائي لكان هذا الكنز مهجورًا بين مقاعد الفراشة، وعلى أقصى تقدير وتكريم له كان سيستخدم مقعدًا لكبار الشخصيات في المآتم. فانتشله الأستاذ وفائي وبذل فيه أموالًا كانت تقدر وقتها بقيمة سيارة في الخمسينيات.

فسيفساء درامية

عكست مفردات وتراكيب وتعبيرات أسامة أنور عكاشة، والاصطلاحات والأمثال العامية التي أوردتها في رواياته الدرامية، ثقافة كل مجتمع وتفرد هويته وإن كانت «الأسرة» هي الوحدة الأولية للمجتمع البشري. فقد كان «الشارع» و«الدرب» و«الحارة» هي الوحدة الأساسية للمكان والتي ربطها عكاشة بالمجتمع ونسجها معه. فمن «درب السنجق» بحي الجمالية إلى «شارع القوَال» بمنطقة السيدة زينب إلى «درب سماحة»، و«خان دوادار»، و«الزنقة» وغيرها. بالإضافة إلى بعض الأحياء والمناطق الراقية -وفقاً لتعبير الشخصيات الروائية- كحي المهندسين والزمالك ورشدي ولوران وكفر عبده وغيرها. فكان عكاشة شديد الحرص على أن يعكس كل فرد هويته وموروثه وميراثه التاريخي. فعلى سبيل المثال في «أبواب المدينة» عبر الأستاذ كامل أفندي النوساني: «ده إحنا زي ما يكون في بؤونة وإحنا داخلين على الخريف». وهي تفصيلاً مهمة وذكية في الوقت نفسه، وظفها عكاشة بذكاء شديد في إشارة إلى درجة استخدام التقويم القبطي (الشهور القبطية) في الدلالات المرتبطة بالطقس والتغيرات المناخية. وهي الشهور التي ارتبطت بكثير من الأمثال الشعبية الموروثة والمتداولة إلى يومنا هذا، ولعل أشهرها ما هو مرتبط بشهري طوبة وأمشير.

تفصيلاً أخرى من تفاصيل عكاشة نجدها في «الراية البيضاء» عندما أشار إلى فيلم «٤٥١» فنهائيت» الذي أنتج عام ١٩٦٦ عن رواية تحمل الاسم نفسه، وكأنه إسقاط لما يحدث في المجتمع على يد فضة المعداوي وشركائها، وغيرها من تفاصيل دقيقة حرص عكاشة على تضمينها في أعماله. ولإعطاء كل ذي حق حقه، كان للإخراج دور مهم في بلورة وصياغة رؤية عكاشة وتحويلها من سطور على ورق إلى شخصيات من لحم ودم. وهذا ما يتضح لنا جلياً بين الأداء التمثيلي في الأعمال الدرامية المبكرة التي غلب عليها الأداء المسرحي، والأداء المتقدم نسبياً في «الراية البيضاء» مثلاً. ولا أجد مثلاً أفضل من بروفة الطاولة التي جمعت أبطال العمل الدرامي المشار إليه. فقد كان النقاش يعكس ثقافة المخرج ورؤيته واستيعابه وفهمه وهضمه لما سطره عكاشة بقلمه. وليس المخرج فقط، بل طاقم العمل كله، بالفنانة سناء جميل كانت شديدة الحرص على هضم شخصية الحاجة فضة المعداوي، فنجدها تتساءل:

«هل تنطق فضة الشمس كما هي؟ أم تنطقها سمس؟». ودار نقاش حول اللكنات واللهجات التي قد يبالغ فيها الفنانون أو المخرج خاصة عند ارتباط هذه اللمكنة بنطاق جغرافي محدد، كاللمكنة البورسعيدية والسكندرية. ولعل أشهر العبارات التي ارتبطت بالمسلسل كانت على لسان الحاجة فضة: «ولاء يا حموووو التمساحة يالاء!». وهي تعني «ولد» وتنطق في الإسكندرية «وله» أو «ولاء»؛ أما «التمساحة» فهي سيارة مرسيدس W126 كانت مشهورة بهذا الاسم آنذاك. واللافت للنظر أيضًا غياب بعض العبارات التقليدية ومنها «أيووه يا جدعان» التي أصبحت تيمة مبتذلة مكررة في غالبية الأعمال المرتبطة بالإسكندرية، والتي استعاض عنها عكاشة بأن غرس المشاهد في شوارع الإسكندرية وأحيائها وشوارعها وتفصيلها، فلم يعد هناك حاجة إلى المبالغة في تضمين كلمات تؤكد المكان وتعززه، وتأتي غالبًا بنتيجة عكسية. ووظف كثيرًا من الكلمات البديلة، مثل «الشراغيش»، «وقار»، «بربون»، و«مياس» المعروفة جيدًا لأهل إسكندرية ولن تتعجب آذانهم عند سماعها، فهي أسماء شهيرة تطلق على أنواع من الأسماك إلى اليوم.

خاتمة

إن نجاح دراما أسامة أنور عكاشة لم يكن فقط في تأطير مفهومي الهوية والموروث، بل في طرحها درامياً بسلاسة دون إقحام فج، فلم يتسبب بأي شكل من الأشكال في عزوف قطاعات عريضة من الجمهور عن المتابعة بشغف، بالإضافة إلى الحس الفكاهي وكوميديا الموقف في بعض الأعمال الدرامية التي زادت ارتباط المشاهدين بالأعمال. وهذا في ظني مفتاح نجاح الرواية الدرامية التي بلورها عكاشة في مشروع محدد المعالم والأهداف، وقدمها في تناغم تام، بعيداً عن الدراما التاريخية المباشرة التي قد لا تلقى الجماهيرية العريضة نفسها التي حققتها الدراما الاجتماعية التي قدمها عكاشة. بالإضافة إلى تقديم عكاشة لنماذج ناجحة استطاعت التأقلم مع التغيرات المجتمعية والمادية والسياسية وغيرها من تحولات وتواءمت مع الهويّات المختلفة التي انتمت إليها. فمن السهل رصد المشكلات

وتفنيدها وتسليط الضوء عليها، والأصعب تقديم مقترحات ورؤى تبدو كأنها تجارب ناجحة يمكن انتهاجها أو التأسيس لحلول جديدة تخرج من رحم المجتمع وتتجانس معه. كان هذا دور الفن وتحديداً «الدراما التليفزيونية» عندما حمل لوائها كاتب أمين، قارئ موسوعي، مثقف، وعلى دراية بأبعاد التحولات المتنوعة التي يجيهاها المجتمع والذي هو جزء أصيل منه. فقدم لنا في كل مرة لوحة فسيفسائية زاهية، متعددة الألوان والحامات، متجانسة شكلاً ومضموناً، إذ طرح مشكلات اجتماعية متعددة وتناول قضايا شائكة خاصة في رائعته «رحلة أبو العلا البشري» الذي اتخذ نموذجاً لرصد التغيرات المجتمعية التي شهدتها ثمانينيات القرن العشرين، وواصل رحلته في التسعينيات. وكذلك بعض القضايا المتعلقة بالتعليم وأخلاقيات المهنة في «ضمير أبله حكمت»، فكان عكاشة نفسه بمنزلة ضمير المثقف الذي لم يخذل قضيته قط؛ أما الكارثة كلها فعندما يتراجع دور المثقف أمام سطوة المادية والحياة الاستهلاكية وهو ما ينادي به عكاشة في أعماله الدرامية.



رؤية لإعادة بناء الشخصية المصرية في ظل التحديات المعاصرة

الدكتورة شيرين جابر

باحث أول بمركز الدراسات الاستراتيجية، مكتبة الإسكندرية

يُعد فهم طبيعة الشخصية المصرية من الأمور المهمة في الوقت الحالي في ظل حث الدولة المصرية على ضرورة إعادة بناء الإنسان المصري من أجل الوصول إلى أعلى أداء فكري للمواطن للارتقاء بالدولة والوصول إلى مرحلة حياة كريمة لكل المواطنين. فقد تعرضت الشخصية المصرية في السنوات الأخيرة لعدة عوامل مستجدة أسهمت في تغيير الشخصية؛ مما أسهم في تحولها إلى شخصية محبطة، فضلاً عن تفشي فيروس كورونا الذي نال من كل بيت وأثر في الشخصية وقيمة البقاء. فالمجتمع المصري يتعرض لعدد من المتغيرات المستمرة التي تشكل ضغوطاً مستمرة انعكست على بنية الشخصية واختلال في منظومة القيم الاجتماعية والثقافية، والتي ظهرت جلياً في ثقافة البلطجة، والتحايل، والعنف.

أولاً: الشخصية المصرية بين الثابت والمتغير

إن الشخصية ليست قالباً جامداً، بل ينالها التغيير والتطور إيجاباً وسلباً، وتتغير استجابةً لمجريات ومستحدثات الأمور فضلاً عن تأثرها بالمرور الحضاري والثقافي الراسخ باللاداعي الفكري الذي تتوارثه الأجيال إجبارياً لا طواعيةً. ومثل هذه التغييرات تعد بمنزلة حراك اجتماعي وسيكولوجي طبيعي يطور سمات ويرفض بعضها، وقد يستحدث

سمات جديدة؛ بهدف إحداث نوع من التكيف مع المجتمع وتحقيق قدر من الاستقرار النفسي.

وقد امتازت الشخصية المصرية بالقدرة الهائلة على التكيف حتى مع الظروف الحالكة. فالمصري يتميز بمرونة في التعامل مع الأحداث ويفكر دائماً في تغيير نفسه بدلاً من تغيير المجتمع، وخير دليل على ذلك أن المصري دائماً يتوقع أن الحال سيصبح أفضل بشكل تدريجي دون العمل وبذل الجهد، ومن الواضح أن التكيف والتحمل في ظل ظروف ضاغطة كالفساد والغلاء والإحباط والفساد وغيرها، أدى إلى تشوه نسبي في طبيعة الشخصية المصرية^(١).

وفيما يتعلق بالثابت والمتغير في الشخصية المصرية، فالطابع المميز للشخصية يتأرجح في متلازمة ازدواجية قد تبدو متناقضة، فنجد في الانتصارات التاريخية والمواقف الوطنية شخصية إيجابية تعاونية حماسية، ثم سرعان ما يتحول إلى شخص فكاهي عند الإخفاقات يمارس الكوميديا الساخرة كحيلة دفاعية، ومع انفلات زمام الأمور يتحول إلى شخصية فوضوية عشوائية^(٢).

يمثل الانسجام بين الأفكار والأفعال عند الأشخاص أحد أهم جوانب الصدق والالتزام القيمي؛ فالإنسان الذي يتبنى فكرة ما ويدعو إليها سيكون منسجماً وصادقاً مع ذاته. وقد سيطرت على المجتمع المصري حالة من الانفصام المجتمعي ناتجة عن الاضطراب الفكري المجتمعي الذي يؤدي إلى خداع الذات والآخريين تحت غطاء التبرير للنفس لفعل الخطأ، فضلاً عن أن نظرة المجتمع للقيم الأخلاقية اختلفت، ففي الوقت الحالي يكون الحكم على القيم الأخلاقية من خلال المظهر؛ مما يدفع عدداً كبيراً من الأفراد إلى تبني سلوكيات شكلية لإرضاء المجتمع؛ وهنا يكمن الانفصام في الشخصية. هذه الظاهرة أدت إلى أن تكون مصر «أرض التناقضات Land of Paradox». ومثل هذه الفجوة بين القول والفعل

(١) شيرين جابر، «الشخصية المصرية وتغير منظومة القيم والمفاهيم»، بوابة الأهرام، ٢٣ نوفمبر ٢٠١٧، <https://gate.ahram.org.eg/News/1644961.aspx>

(٢) منى حمدي، «التحولات النفسية للشخصية المصرية»، الديمقراطية ٢١، العدد ٨٤ (أكتوبر ٢٠٢١): ٦١.

والانفصام المجتمعي ازدادت في السنوات الأخيرة بسبب عدد من التغيرات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية^(٣).

وقد بنى عالم الاجتماع الأمريكي «رونالد إنجلهارت» من جامعة ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية خريطة ثقافية للعالم يمثل محورها الرأسي القيم التقليدية في مقابل القيم العقلانية، ويمثل محورها الأفقي قيم البقاء في مقابل قيم التعبير عن الذات، ووضع البلدان عليها طبقاً للقيم التي يمثلها كل مجتمع.

تقع مصر في الجزء الأيسر السفلي، مما يدل على أنها تتميز بانتشار القيم التقليدية وقيم البقاء، على الجانب الآخر تقع بعض الدول الأوروبية البروتستانتية مثل ألمانيا وفنلندا والسويد وهولندا في الجزء الأيمن العلوي من الشكل، مما يدل على أنها دول تتسم بانتشار القيم العلمانية العقلانية وقيم التعبير عن الذات^(٤). ومن ثم، فإن قيم البقاء هي القيم المميزة لدول العالم الشرقي، وقيم التعبير عن الذات هي القيم المميزة لدول العالم الغربي.

إن أهم أسباب التحول الاجتماعية في الشخصية المصرية اختلال منظومة القيم المصرية الأصيلة وانهيار المثل العليا، وتغليب المصلحة الفردية على العمل الجماعي، وعدم القدرة على تجاوز المصالح الشخصية، والتنشئة الاجتماعية الخاطئة المتمثلة في التدليل الزائد والاعتماد على الآخرين، بالإضافة إلى التفكك الأسري، والتدهور الأخلاقي، كما أن هناك تدهوراً في الأوضاع الاقتصادية في مصر، وتفاقم البطالة، والغلاء؛ الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى الإحباط وضياع الهوية الثقافية لهذه الفئات الشابة، وتصاعد مشاعر السخط على عموم الأوضاع المعيشية والاجتماعية السائدة، وتشكيل نوع من النفور من كل ما يربطهم بترائهم وعقيدتهم ووطنيتهم.

(٣) أحمد الشوري أبو زيد، «الثابت والمتغير في الشخصية المصرية: تدين الشعائر وتدني السلوك»، آفاق سياسية، العدد (١٥) مارس ٢٠١٥: ٩٩-١٠٠.

(٤) World Values Survey, www.worldvaluessurvey.org/.

إن السمات السلبية للشخصية المصرية ليست سمات أصيلة للمجتمع المصري؛ وإنما هي آليات للتكيف وأحياناً آليات للمقاومة تبعاً للبناء الاجتماعي للمجتمع المصري. وعلى ذلك فإن استراتيجية بناء الإنسان المصري لا بد أن تهتم أساساً بالتركيز في الناحية القيمية، كمحاولة للعمل على دعمها وملاءمتها لمتطلبات تحقيق التنمية الشاملة، بحيث يتهيأ للإنسان المصري القيام بالدور المنوط به من أجل رفعة الوطن.

إن الهدف الأساسي الانتقال بالشخصية المصرية إلى أن تصبح شخصية متزنة قادرة على التفكير بإيجابية حتى لا ينحرف اتساقها النفسي والقيمي الداخلي في ظل الأزمات؛ لتخرج منها شخصية تتسق أقوالها مع أفعالها، فلا تغير اقتناعاتها لتطوع بها أفعالها أو العكس، ولا تتلون مع تغير الظروف. والشخصية المتزنة السوية هي نتاج لعملية متدرجة لتنمية الذات، تبدأ من الطفولة فصاعداً عبر مراحل الحياة الارتقائية؛ ليصبح الوصول إليها هدفاً من أهداف المجتمع ككل^(٥).

رؤية لإعادة بناء الشخصية المصرية في ضوء الجمهورية الجديدة

من خلال العرض السابق وجب تحديد عدد من العناصر من أجل إعادة بناء الشخصية المصرية بما يتلاءم مع ملامح الجمهورية الجديدة، وذلك من خلال:

١- دعم دور الأسرة المصرية

تُعد الأسرة النواة الأساسية لأي مجتمع، وأي خلل يحدث بها يؤثر في أمن وتماسك واستقرار وتقدم المجتمعات. والدور الذي تقوم به الأسرة المصرية في الوقت الحالي عملية تربوية غير متوازنة، ولا يُؤخذ في اعتباره جوانب المسؤولية الاجتماعية بمختلف أنواعها ومجالاتها؛ وهذا يؤدي إلى عدم تكيف الأبناء لتأدية أدوارهم الاجتماعية بشكل سوي ومتوازن. ويظهر ذلك في عدم وعي الآباء والأمهات بأسس التنشئة الاجتماعية السليمة،

(٥) سماح زهران، «الشخصية المتزنة وبنية المجتمع»، علم النفس ٣١، العدد ١١٩ (ديسمبر ٢٠١٨): ٣٣.

بالإضافة إلى المشكلات الأسرية كالتفكك الأسري، وارتفاع نسب الطلاق. فوفقًا للجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بلغت بيانات الطلاق نحو ٢٢٢ ألف حالة خلال عام ٢٠٢٠، ثم ارتفعت بنسبة ١٣٪ لتبلغ نحو ٢٤٥ ألف حالة خلال عام ٢٠٢١^(٦). لقد تحول الطلاق من كونه «ظاهرة اجتماعية» إلى «مشكلة اجتماعية». وأصبحت هذه المشكلة تُلقى بظلال سوداء، لا على النظام الاجتماعي فحسب؛ وإنما أيضًا على النظام الاقتصادي والسياسي؛ ما جعل الأمر محل اهتمام دوائر رسمية عديدة وغير رسمية^(٧). ومن هنا نستطيع القول؛ قد أصبحت هناك ضرورة مُلِحَّة لتسليط مزيد من الضوء على هذه المشكلة في المجتمع؛ لذا لا بد أن تغرس الأسرة المصرية عددًا من القيم المجتمعية مثل العمل، وتحقيق الذات، والاعتماد على النفس، وتحمل المسؤولية، وروح المبادرة، والانتماء والمواطنة، وحب الوطن، وضبط الانفعال والسلوك في مواجهة أعباء الحياة وغيرها من القيم؛ للمحافظة على المنجزات الحضارية والاقتصادية والإسهام في دعمها.

٢- المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات الدينية

يؤدي الدين دورًا محوريًا في تشكيل النسق القيمي في أي مجتمع؛ فإذا كان الأفراد في مجتمع ما يولون الدين أهمية كبيرة في حياتهم، فإنه يمكنك التنبؤ النسبي بالتوجه القيمي لدى أفراد هذا المجتمع. فكلما ارتفعت أهمية الدين في مجتمع ما مال إلى القيم التقليدية، وعلى العكس كلما تحرر المجتمع من الدين وأصبح أقل أهمية في حياته مال إلى القيم العلمانية العقلانية^(٨).

(٦) «عدد حالات الطلاق»، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، www.capmas.gov.eg/Pages/IndicatorsPage.aspx?Ind_id=1089

(٧) هبة عبد العزيز، «الطلاق في مصر مؤشرات عامة»، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ٦ فبراير ٢٠١٩، <https://ecss.com.eg/3317>

(٨) محمد عز، «المسح العالمي للقيم: قراءة في التحولات القيمي والثقافية حول العالم»، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٢، ecss.com.eg/20599

وتكمن أهمية المؤسسات الدينية في الدور المركزي الذي يمكن أن تقوم به في ترسيخ منظومة القيم الداعمة لنمو وتطور المجتمع واستدامته، إذ على المسجد والكنيسة أن يعملتا على تأكيد القيم المركزية المستمدة من الدين، والتي تعد أساسية في إقرار قيم الدور الاجتماعي من أجل تحقيق استقرار المجتمع وتماسكه.

وعند النظر إلى بعض المؤسسات الدينية في مصر نجد أنها مؤسسات خاملة لا تقوم بالدور المنوط بها، فلا بد أن يواكب الخطاب الديني العصر ويبحث على القيم الفاضلة وينشرها بطريقة تتناسب مع روح العصر ويتقبلها الجيل الحالي؛ بهدف صناعة جيل واع يشعر بالمسئولية تجاه مجتمعه ووطنه^(٩).

٣- مراجعة السياسات التعليمية

يعد التعليم أحد المحاور الرئيسية في تكوين شخصية الإنسان، وهو الذي يعمل على صياغة العقول والنفوس ويزرع القيم والأفكار والمبادئ التي تتكون منها الشخصية في المستقبل، وكما يقال: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر». من هنا يدرك كل غازٍ أو مستعمر يسعى إلى تغيير عقول الأشخاص أنه لن يتمكن من هذا الأمر بقوة السلاح فقط؛ وإنما بتعديل مناهج التدريس في البلد الذي استعمر. وبهذه الطريقة يضمن المستعمر تبعية جيل كامل لفترة طويلة من الزمن. إن التعليم يشارك في الإعداد والتجهيز لكل مرحلة ويدخل في الحسابات الاستراتيجية لواضع السياسة، لكنه بعد الانتهاء من المعركة أو المرحلة يخرج من حساب المشاركة في المكسب أو الخسارة^(١٠).

إن الاهتمام بالتعليم له علاقة وطيدة بإعادة بناء الإنسان المصري، لذلك يجب الاهتمام بأهداف التعليم وضرورة تضمينها لضرورات الحياة المصرية ورياضة العقل الذهنية والروحية وتنمية القدرات الإبداعية، كما يجب الاهتمام بتطوير المناهج التعليمية، واختيار المناهج

(٩) عمرو غنيم، «الجمهورية الجديدة»، الديمقراطية، العدد ٨٣ (يوليو ٢٠٢١): ٥٩.

(١٠) شيرين جابر، «الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي»، أوراق، العدد ١١ (أكتوبر ٢٠١٣): ٧٣-٧٤.

المناسبة في مراحل التعليم المختلفة، وبناء التفكير النقدي، والتخلص من الأسلوب القائم على الحفظ والتلقين.

٤- إعادة رسم السياسات الإعلامية

لعل الأمر الحقيقي الذي حدث في السنوات الأخيرة في المجالات الإعلامية هو الانتقال من منطقة العرض إلى منطقة الفرض. ففي السابق كانت وسائل الإعلام تعرض منتجاتها ويمكنك الاختيار. ولكن الذي حدث بعد التطورات التقنية الهائلة في مجالات شتى قد منح الإعلام القدرة على ما يريد. ما أثر تمامًا في الاتجاهات الثقافية بشكل خاص من خلال اللجوء إلى ثقافة الكلمة. فخطاب الصورة يحتوي على جانبين متعارضين ومتكاملين؛ هما الجانب الدلالي أي «ما يقال» والجانب الجمالي أي «ما يتضمنه الخطاب». ومن ثم، فإن احتلال الصورة مكانة في التواصل البشري أهم من الكلمة كان إحدى نتائج تقدم الاتصال عن طريق الفضاء واحتلال الأعمار الصناعية المكانة الأولى قبل الأوراق في إحداث هذا التواصل. وبفضل هذا التطور ومن خلال القنوات وشبكات الاتصال أصبحت الصورة المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد^(١١).

يقع على الإعلام المصري دور مهم في تأصيل قيم الحوار والتواصل المجتمعي وإحداث تغيير حقيقي في مفاهيم المجتمع بقبول الآخر، واحترام التعددية، ومن ثم تظهر أهميته في دعم قيم انتماء الشباب إلى الوطن، بحيث يكون الإعلام حائط صد للمحاولات التي تعمل على زعزعة أمن واستقرار الوطن، وإضعاف بنيته الداخلية.

ولا بد أن نعترف أن الإعلام المصري فشل في القيام بدوره في خدمة القضايا المجتمعية، فهو يعاني خللاً على عدة مستويات؛ على مستوى الهدف والرسالة، والاستراتيجية، وآلية التطبيق. فهذا الانقسام والتشتت والنفاق السياسي صنع عائقاً رئيسياً أدى إلى فشل الفضائيات في الإسهام في بناء المجتمع.

(١١) جمانة شومان، الإعلام وثقافة الصورة في الاتصال والمعلومات (بيروت: الجامعة اللبنانية. كلية الإعلام والتوثيق، ٢٠٠٥): ١٩١.

٥- الدراما وغرس القيم الإيجابية

تؤثر الدراما في قيم واتجاهات وسلوكيات شرائح المجتمع كافة، لذلك فإن التعرض لما تقدمه القنوات الفضائية من دراما سواء أفلام أو مسلسلات يترتب عليه مشكلات اجتماعية كبيرة قد تسهم في تدمير القيم الأخلاقية وإشاعة الانحرافات السلوكية. فقد أصبحت معظم المضامين التي تُبث تقدم العنف والإدمان والممارسات الإباحية وإعلاء القيم المادية بشكل أساسي؛ ما أثر في أفراد المجتمع وخاصة المراهقين.

لذا على صناع الدراما عرض نماذج إيجابية تتسق مع قيم المجتمع؛ ليتخذها الشباب قدوة في حياتهم بحيث تستوعب المشاهد الدرامية للمتغيرات الاجتماعية التي يحتاجون إليها. وهذا يتطلب تفعيل دور الجهات الرقابية للحد من مشاهد الانحرافات السلوكية المقدمة في الدراما؛ وذلك من خلال عرض أي محتوى على لجان رقابية تضم متخصصين في النواحي الاجتماعية والدينية والنفسية.

٦- تبني سياسات سكانية هادفة

إن عدم التنسيق بين السياسات السكانية التي تشمل السكان والتنمية على حد سواء ينجم عنه مشكلات اجتماعية واقتصادية وأمنية متعددة، ومنها المشكلات ذات الصلة باستقرار الحياة الأسرية والإسكان والبطالة، وعدم التأهيل المناسب للموارد البشرية، وعدم وجود فرص عمل؛ وما ينتج عن ذلك من مشكلات تنعكس على السلوك الاجتماعي والفكري للشباب بسبب عدم القدرة على احتوائهم واستثمار طاقتهم.

لذا لا بد من الاستفادة من الثروة البشرية وتوظيفها في المشاريع العملاقة لتحقيق مجالات أوسع للاستثمار وإنشاء فرص عمل للحد من مشكلة البطالة وتحسين الظروف البيئية للسكان سواء في المدن الجديدة أو في المدن القائمة ذات الكثافات السكانية العالية، بالإضافة إلى معالجة سوء توزيع السكان الجغرافي، واستثمار الموارد المتاحة في صحاري مصر

وسواحلها، بما يسهم في تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية إقليمياً في مختلف مناطق الدولة^(١٢).

٧- تعديل القوانين بما يتماشى مع مقتضيات الظروف الجديدة

يحتاج بناء الشخصية المصرية إلى فهم القوانين المصرية المنظمة للمجتمع، بما يسهم في رقي الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية، وإلى التصدي لظواهر اجتماعية منها ظاهرة عدم الانضباط؛ وذلك بتحديد أسلوب علاجي يتمثل في تعديل القانون بما يتماشى مع مقتضيات الظروف الموضوعية الجديدة للواقع فيجعل تطبيقه ممكناً، بالإضافة إلى تطبيق القانون بواسطة القائمين على تنفيذه بشكل يتماشى مع الواقع، مع مراعاة اتباع سياسة الثواب والعقاب.

٨- إنتاج التكنولوجيا الحديثة والمتقدمة

لا بد أن يسعى المصري إلى إنتاج التكنولوجيا الحديثة والمتقدمة، وعدم الاكتفاء بالحصول على نتائجها وثمارها، أي لا بد أن يكون منتجاً وليس مستهلكاً فحسب، وإلى الاهتمام بالتربية التكنولوجية التي تهدف إلى تزويد الأفراد بالقدر اللازم من الخبرات التكنولوجية من معارف ومهارات واتجاهات وسلوك وأخلاقيات، والتي تعمل على تثقيف الأفراد تكنولوجياً.

ويعد بعث التراث الحضاري المصري الأصيل والوصول إلى جوهره من أهم ما يجب أن يسعى إليه المصري؛ من أجل الوصول إلى التوازن الحقيقي للتقدم. فالتقدم الحضاري وإعادة بناء الإنسان المصري ليس شكلاً ولا أدوات تستعار؛ وإنما هي روح تكمن وراء كل هذا الإنجاز المادي والفكري. فإذا تغذت الروح ونمت تغيرت الشخصية، وتطابق القول

(١٢) علياء عبد الرؤوف، «المتغير الديموجرافي وتأثيره في الشخصية المصرية»، الديمقراطية ٢١، العدد ٨٤ (أكتوبر ٢٠٢١): ٧٢.

والفعل؛ وهذا يعني أن يتعايش الإنسان بالقيم ويورثها، وأن يقوموا بتطبيقها بدلاً من التجادل حولها.

٩- بلورة رؤية جديدة لدور ومسئوليات المجتمع المدني ومنظومة القيم الحاكمة

وذلك من خلال فلسفة جديدة تهتم بالتعامل مع مجتمع المخاطر المحلي والإقليمي والدولي، وما يفرضه من تحديات ومخاطر عكستها بوضوح جائحة كورونا وتداعياتها الإنسانية والاجتماعية والثقافية؛ لذا لا بد من تفعيل المسؤولية المجتمعية بقيم ووعي وترسيخ ممارسات المواطنة الفعالة في المجتمع، وضرورة العمل على استيعاب ما يشهده المجتمع المصري من تحديات، ومخاطر تهدده بالقدر الذي يساعد على الانتقال من إدراك المخاطر إلى إدارة هذه المخاطر.

كذلك يجب تعزيز النهج التشاركي بين القطاعات الثلاثة (الحكومي، والأهلي، والخاص)؛ لتعزيز قدرات الدولة والمجتمع لتنفيذ الأجندة الوطنية والأهداف المنشودة، وفي مقدمتها بناء الإنسان المصري، وأن يستند هذا النهج إلى المزج بين الاستثمار في رأس المال البشري وشبكات الأمان الاجتماعي للفقراء، استناداً إلى ما تمثله القدرات البشرية من سبيل للتغيير الاجتماعي، وتحصين المجتمع، وبناء الجمهورية الجديدة^(١٣).

١٠- التمسك بهوية المجتمع والأمة والدولة

تُعد الهوية بعناصرها التأسيسية من تاريخ وحضارة ولغة وثقافة وغيرها من عناصر تشكيل الهوية، هي الأساس لبناء الشخصية المصرية على أساس صحيح، وبقدر الوعي الفردي والمجتمعي بقيمة الهوية والتمسك بها تبرز قوة الشخصية وتفوقها وقدرتها على عطاء نفسها والمجتمع؛ ما يؤدي إلى نوع من التماسك المجتمعي، والإحساس بقيمة الأمة والدولة. ومن ثم لا بد من إحياء الهوية في ضمير الأفراد، وتوجيه المؤسسات المجتمعية إلى

(١٣) أيمن عبد الوهاب، «نحو أجندة وطنية لمجتمع مدني تنموي في الجمهورية الجديدة»، الديمقراطية، العدد ٨٣ (يوليو ٢٠٢١): ٣٦-٣٧.

القيام بدورها في استعادتها وامتداد ذلك إلى جميع فئات المجتمع وأطيافه بالالتقاء على أسسها وعناصرها، وتعميقها والالتفاف حولها.

ويجب أن تكون عناصر الهوية حاضرة في كل شيء يمارسه الفرد، وهذا يقوي إحساس الأجيال القادمة بهويتهم ويرفع وعيهم بأنهم يمتلكون سمات حضارية وثقافية يفخرون بأنهم ينتمون إليها. ويقوى هذا بأن تكون المثل العليا للثقافة المصرية متجذرة في رؤية المستقبل؛ لكي تنهياً الأجيال القادمة له متسلحة بمستوى متقدم علمياً، وهو أمر يستحق أن نبذل فيه الجهد من أجل إحداث تنمية شاملة.

خاتمة

إن الجمهورية الجديدة لا يمكن أن تنجح دون بناء حقيقي للإنسان، وهنا نقر بحكمة مستمدة من تاريخ الثورات في العالم أجمع؛ فما من نظام اجتماعي أراد لنفسه ولأفكاره البقاء والاستمرار إلا وسعى جدياً إلى بناء الإنسان نفسه على المستويات كافة. وهي مهمة شاقة وصعبة وممتدة الأثر، وأصعب ما يواجه تلك القضية أن الثورات التي تحمل في مبادئها وأهدافها التغييرات الاجتماعية تمر هي ذاتها بمسار طويل لإرساء الطريق السليم والمناسب الذي لا بد من المضي فيه لتحقيق مصالح جميع طبقات المجتمع؛ فينتج عن هذا إنسان مواطن ذو قيم وأنماط سلوكية سليمة تختلف عن تلك التي كان يتبناها ويمارسها قبل تفعيل هذا التوجه الاستراتيجي.





BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

ISBN 978-977-452-664-4